تأملات ابن القيم

في

الأنفس والآفاق

قائد طيار

أنس بن عبد الحميد القوز

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات ابن القيم
في
الأنفس والآفاق

الناشر

مكتبة دار السلام

فرع شارع الأمير عبدالعزيز بن جلوي
(الضباب سابقاً) الرياض
تلفون ٤٠٣٣٩٦٢ فاكس ٤٠٢١٦٥٩

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى
١٤١٣هـ

تقريظ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضَّل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن مما يزيد المؤمن إيمانًا بربه تلك الآيات المختلفة في الجنس والنوع في اللون والمذاق في الصغر والكبر.

﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ فسبحان من خضعت له الرقاب وذلّت لجبروته الصعاب، لا تلتبس عليه الأصوات ولا تخفى عليه دقائق الأشياء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون عظيم في تدبيره قد أحسن كل شيء خلقه وأتقنه فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفي كل شيء له آية تدل على أنّه واحد

حثَّ عباده على التفكر في آياته ليروا مدى عظيم صنع ربهم ومدى ضعفهم وعجزهم ﴿**وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**﴾.

فذكر تعالى في كتابه آيات من عظيم صنعه تحار فيها العقول من عظيم خلق بعضها ودقة صنع بعضها وعجيب تركيب بعضها.

فقال:

﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾.

وقال: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت**﴾.

وقال تعالى: ﴿**بلى قادرين على أن نسوي بنانه**﴾.

وقال عز وجل: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾.

وقال عن خلق الإنسان أيضًا: ﴿**الذي خلقك فسوّاك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك**﴾.

وقال: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾.

ومع هذا كله فإن المؤمن إذا أمعن النظر والتدبر ظهرت له حِكَمُ وحِكَمُ وصدق الله ومن أصدق من الله قيلا. ومن أصدق من الله حديثًا. ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾.

وفي طيات هذا الكتاب وبين جنباته يطلق الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ العنان لقلمه بأسلوب بديع وبليغ فيتحدث عن بعض آيات الله وما تضمنته من الحكم الحسية والمعنوية فيقرر التوحيد تارة ويرد على الملحدين والمعطلين تارة أخرى. وحسبك بابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في صفاء معتقده وسلامته وقوة حجته وبلاغة أسلوبه فرحمه الله تعالى وأجزل له مثوبته وأعلى نُزُله في جنته.

وهذا الكلام الذي تطالعه في هذا الكتاب أصله في كتاب «مفتاح دار السعادة ومنشود ولاية العلم والإرادة» قام الأخ الكريم قائد طيّار أبومالك أنس القوز باستلال هذا المقدار من كلام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ، لأنه يصب في قالب واحد وهو التحدث عن بعض حكم الله تعالى في مخلوقاته. ودعّم ذلك بالصور وببعض ما اكتشف العلم الحديث. فزاد الكتاب فائدةً وتأثيراً. فشكر الله له سعيه وجهده في نشره لكلام سلف الأمة من الأمة الناصحين لها، الذابين عن الدين بما استطاعوا.

وختامًا الله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب قارئه وسامعه وأن يجزي صاحبه ومنتقيه خير الجزاء والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عبدالعزيز بن محمد السدحان

٥/١٤٢٣/٤/٢٩

بين يدي الكتاب

الحمد لله الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علمه البيان. . . والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء محمد، ﷺ، بعثه الله رحمة للأنام وبعد:

فإن كتب العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ وأسكنه فسيح جناته في غنىً عن التعريف إذ لم يوجد مثيلها في مجال التأليف، وهذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارىء هو بعض من جزء من إحدى كتاباته القيمة، أحببت بجهدي القليل أن أتشرف بعرضه بشكل حديث يناسب قرّاء هذا الزمان الذي ضعفت فيه الهمة في القراءة وطغت فيه روح التعامل مع المادة حتى انحسرت فيه المعرفة عن الاذهان وهذا يدل على ضعف في الدين ونقص في الإيمان. فتناولت كتابه المشهور بـ «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة»، وقمت بـ إخراج الفصول التي بين صفحتي ١٨٧، ٢٨٣ في الجزء الأول وأعدت صفها من جديد لتكون في أربعة أبواب هي:

١ ـ الإنسان.
٢ ـ الكون.
٣ ـ الحيوان.
٤ ـ الطبيعة.

وجعلت لكل فصل من الفصول، عنوانًا وربما قسمت بعض الفصول إلى عنوانين مختلفين فجاءت جميعًا في نحو من مائة وزيادة من الفصول وذلك لتقريب الفائدة ليسهل الوصول إليها، كما وأني قد استعنت ببعض الموسوعات العلمية الحديثة وكتب الطب والأحياء التي تحوي في طياتها كثيرًا من المعلومات القيمة المعروضة بأسلوب شيق وسهل فأضفت إلى تلك الفصول مايناسبها من الصور والإشارات العلمية التي تقرب الفهم إلى القارىء وتجعل عجلة الفكر أسرع في الوصول إلى الهدف المراد من تأليف هذا الكتاب إذ أن الصورة لها أثرها على نفس القارىء المتأمل وبخاصة إذا انطلق بتأملاته من توجيهات الآيات القرآنية الكريمة والإرشادات النبوية الشريفة والتي عرض لنا الإمام ابن القيم رحمه الله

نماذج منها جاءت في اكثر من مائة عنوان في هذا الكتاب.

وقد اخترت كتاب الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله لأنه عرض في كتابه «مفتاح دار السعادة» **فن وكيفية التفكر** وماهي الوسائل التي تبذل للوصول إلى نتيجة الفكر في الآفاق والأنفس.

ومن تلك الوسائل التي استعرضها الإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب «مفتاح دار السعادة» مايلي[1]:

١ - الدعوة إلى النظر في مخلوقات الله عز وجل في الأنفس والآفاق بعين البصيرة النيرة لاستجلاء عظمة الله فيها ومعرفة قدرته الباهرة وحكمته سبحانه.

٢ - الدعوة إلى النظر في آيات الله المتلوه وشرعه المنزل ومعرفة ما في هذا الشرع من حسن اتفقت عليه الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

٣ - إمتثال أمر الله والاستقامة على منهجه مما يهيء القلب ويفسح المجال له للتفكر والنظر في مصالحه، ففي غض البصر عن المحرم مثلاً فوائد حيث إنه امتثال لأمر الله، ويمنع وصول أثر السم، ويورث القلب أنساً بالله، ويقوي القلب، ويفرحه، ويكسب القلب نوراً يورثه الفراسة الصادقة، والثبات والشجاعة، ويسد عليه مداخل الشيطان، ويفرغه للفكر في مصالحه، لأن بين القلب والنظر منفذاً.

٤ - الاحتراز من خطر المعاصي والحذر منها لأنها صوارف تصرف الفكر عن وظائفه، فإن القلب إذا توالت عليه المعاصي فسد وأفسد بقية الأعضاء.

٥ - عدم التقليد الأعمىٰ لأنه يحجر العقل ويعطل مفعول الفكر وإنما الواجب صرف الفكر والهم إلى ماتهدف إليه نصوص الكتاب والسنة وكيفية العمل بهما على منهج الخلافة الراشدة.

٦ - سكون البدن وراحته واستقراره وذهاب الصوارف والشواغل عنه.

وهذه الوسائل التي يبذلها الإنسان كفيلة بأن توصله إلى النتيجة المطلوبة والتي يسعىٰ إليها كل إنسان حيث إننا نستفيد من التفكر عدة فوائد منها:

(ا) أنه سبب في حصول الإيمان.

---

(١) كتاب الفكر التربوي لابن القيم.

(ب) أنه يكشف عن حقائق الأمور ويعرف مافيها من خير أو شر.

(جـ) أنه يقطع السبيل على الوساوس والأوهام.

(د) أنه سبب في كف النفس عن المحرم.

(هـ) أنه أصل لكل طاعة.

(و) أنه يوصل إلى معرفة الله سبحانه وتعالىٰ بوحدانيته وصفات كماله والتوحيد الخالص له.

(ز) كما أنه أصل في صلاح القلب عند تلاوة القرآن[1].

وقال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: « **تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله**»[2] رواه أبونعيم في الحلية عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

ونتفكر في آيات الله في الآفاق والأنفس ونعطي النفس حظها من ذلك لكي نحصل على الفوائد التي سبق ذكرها.

هذا وأسأل الله تعالى أن أكون قد أضفت شيئًا لهذه الفصول القيمة وأكون قد أحسنت الربط بين العلم الذي يدل على قوة إيمان علماء السلف والعلم المادي الحديث الذي يعتمد على المشاهد العينية والتجربة والبرهان الملموس.

كما وأرجو الله سبحانه وتعالىٰ أن يوفقنا إلى مافيه من خير وصواب ويجنبنا الزلل إنه على كل شيء قدير والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائد طيار/ **أنس القوز**

١٥/ رمضان / ١٤١٢هـ

---

(١) الفكر التربوي عند ابن القيم.

(٢) حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع.

الفصل الأول

الإنسان

قال تعالى :

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ

محتوى الفصل الأول

الصفحة

قول ابن القيم في الإنسان	١٥
تطور خلق الإنسان	١٦
من الذي دبَّرك بألطف التدبير	٤١
الذكر والأنثى	٤٥
آلة التناسل للإنسان	٤٨
أجهزة الإنسان وجمال خلقتها	٤٩
رد على الطبائعيين	٥١
معنى طبيعه	٥٢
أحسن تقويم	٥٤
تكريم الله للإنسان	٥٥
نعمة الحواس	٥٨
مساعدات الحواس	٥٨
التفكر فيمن فقد الحواس	٦٣
نعمة البيان والإدراك	٦٤
تعدد الأعضاء	٦٤
تشابه الحيوان وعدم تشابه الإنسان	٦٦
الصوت وآلات الكلام.	٦٧
أجهزة الرأس	٧١
تساؤلات في النفس	٧٥
آلام الأطفال	٨٠
أسباب الإبتلاء	٨٢
القوى الدافعة في أجهزة الجسم	٨٤

نظر المؤمن وغيره	٨٦
الحفظ والنسيان	٨٦
الحياء	٨٦
البيان	٨٨
عند الكتابة	٩١
العلم والجهل	٩٢
مراحل تطور خلق الإنسان في رحم الأم	٩٥

قول ابن القيم في الانسان(1)

١ - أنَّ أصله الأول من طين، ونسله من ماءٍ مهين.
٢ - أنـه خلق من قبضـةٍ قبضها الله من جميع الأرض، فيها الطيب والخبيث والسهـل والحـزن والكـريم واللئيم، وذلك عندما أرسل الله جبريل عليه السلام فقبض هذه القبضة . . . ثم خمرها حتى صارت طينًا، ثم صوره، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوَّره، فلما دخلت الروح فيه صارت لحمًا ودمًا حيًا ناطقًا . . . ثم أسجد له ملائكته وعلَّمه أسماء كل شيء.
٣ - أنه كُرِّمَ بالعقل والعلم والفهم والبيان والنطق.
٤ - أنه خص بحياء الخلق.
٥ - تميزه بالبيانين النطفي والخطي.
٦ - قدرته على التعلم بما أعطاه من الوسائل المعينة لذلك.
٧ - تميزه بـ دوافع وغرائز لها وظيفتها تقوم على مصالحه.
٨ - تميزه بالقوة والشهوة والإرادة.
٩ - أوامر الله لاتنفك عنه إلى أن يلقاه.
١٠ - أنه لم يخلق عبثًا.
١١ - تميز الإنسان في شكله وصورته.
١٢ - الإنسان كل لايتجزأ روح وعقل وجسم.

(١) الفكر التربوي عند ابن القيم.

تطور خلق الانسان

قال ابن القيم:

إذا تأملت مادعى الله سبحانه وتعالى في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانية صفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكير في آياته. ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل على غيرها (فمن ذلك خلق الإنسان) فقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا**﴾.

وقال تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقةً فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفةً في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين**﴾.

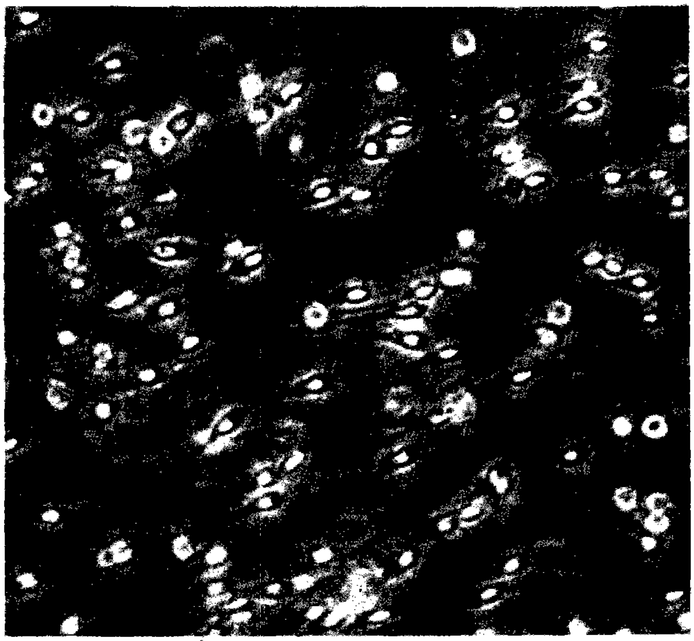

الحيوانات المنوية وهي تسبح في السائل المنوي

تعتبر الخصية عند الرجل مصنع الإنتاج للنطف أو (الحيوانات المنوية). حيث تجتمع أنابيب مجوفة وبأطوال تصل إلى بضع كيلومترات لتصنع النطف ومن جدارها الداخلي حيث تتطور خلايا الجدار لتصل إلى مرحلة النطفة برأس طوله ٥ مكيرونات وذنب طوله ٥٥ ميكرون، وتعتبر النطفة حاملة لإمكانية خلق نصف إنسان، ويجب أن نعلم أن دفقة المني الواحدة عند الرجل قد تصل إلى ٥٠٠ مليون حيوان منوي ولايتخلق الإنسان إلا من نطفة واحدة فقط، بل إن التوأم أيضًا قد يتخلق من تلقيح بيضة بحيوانين منويين. وعدد الأنابيب المنوية في الخصية حوالي (٤٠٠٠) أنبوب منوي . . . (عن كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن).

وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره. إذ أنَّ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيها من العجائب الدالة على عظمة ماتنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه ولو فكر في نفسه لزجره مايعلم من عجائب خلقها عن كفره.

قال الله تعالى:

﴿قتل الإنسان ماأكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره، ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره﴾.

فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولالنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث.

النطفة في الرحم وتخلق العلقة ثم المضغة:

(فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وتنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما؟ وكيف قادهما بسلسة الشهوة والمحبة إلى الإجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدّر اجتماع ذلك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارًا مكينًا لايناله هواء يفسده ولابرد يجمده ولاعارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لاكسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدها وملمسها ولونها.

بويضة المرأة
مكبرة
آلاف المرات

رأس الحيوان المنوي الذي جاء ليلقح البويضة

في المبيض عند المرأة بويضات جاهزة تصلح كل واحدة أن تكون نصف إنسان، يبلغ عددها في المبيض الواحد (٤٠٠,٠٠٠) بويضة، ولايفرز من هذه البويضات في كل دورة قمرية (٢٩) يومًا سوى بيضة واحدة، ويتناوب المبيضان في الإفراز بالحالة الطبيعية، ويعتبر المبيض غدة الجنس البدئية كما هو الحال في الخصية عند الذكر.

مرحلة العظام واللحم والعصب:

وانـظر كيف قسّم تلك الأجـزاء المتشـابهة إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتـار واليابس واللين وبـين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعضٍ أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحمًا ركبه عليها وجعله وعاءًا لها وغشاءً وحافظًا وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به؟ وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدرٌ يخصه ومنعة تخصه.

أشكال العظام المختلفة والروابط التي بينها:

ثم انظر إلى الحكمة البالغة في تركيب العظام قوامًا للبدن وعمادًا له، وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفة، وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ماتركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ماتركيبه اتصال فقط، وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستقيمة محددة. ولما كان الإنسان محتاجًا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظمًا واحدًا بل عظامًا متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر نقرًا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزءًا من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه.

أجزاء من العين

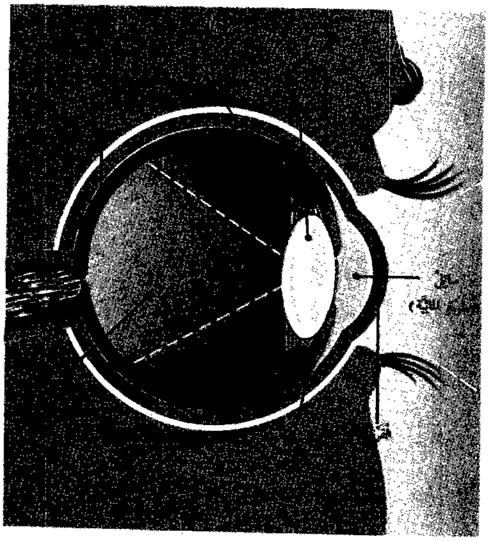

القرنية:
هي النافذة الأمامية للعين ، وهي عبارة عن غشاء رقيق يلي القزحية والبؤبؤ.

القزحية: وهي التي تعطي للعين لونها الأسود أو العسلي أو الأزرق أو الأخضر. وهي حاجز عضلي يلي القرنية وبها فتحة في المنتصف تسمى البؤبؤ.

البؤبؤ : هي الفتحة القابلة للاتساع والضيق بحسب قوة الضوء ويتحكم بذلك عضلات القزحية.

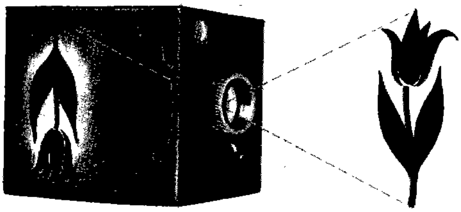

آله تصوير

لعدسة: وهي عبارة عن بلورة شفافة مرنة بها سائل شفاف ومربوط بعضلات من الأطراف لتتحكم بتحدب العدسة كي تتكون الصورة واضحة على الشبكية.

الصلبة: هي الغشاء الخارجي الذي يحمي العين (وهي البياض).

المشيمة: الطبقة التي تلي الصلبة وبها الأوعية الدموية والعروق المغذية للعين.

الشبكية: وهي التي تلي المشيمة، وتتكون هذه من ١٠ طبقات لاترى بالعين المجردة ومن هذه الطبقات العشر طبقة واحدة تقوم بمهمة الرؤية حيث تتكون هذه الطبقة من ١٤٠ مليون خلية منها...

١ ـ الخلايا العصوية: وهي التي تختص بالإحساس بالنور العادي.

٢ ـ الخلايا المخروطية: وهي التي تختص بالإحساس بالنور المركّز.

خلق الرأس وما به من الحواس:

وتأمَّل كيفية خلق الرأس وكثرة مافيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وخمسون عظمًا مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليًا علو الراكب على مركوبه، ولما كان عاليًا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

العينـــان:

وجعل حاسة البصر في مقدمته ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الإبصار، ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقًا عجيبًا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به مابين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الحاجبـــان:

فانظر كيف حسَّن شكل العينين وهيئتهما ومقرهما ثم جعلهما بالأجفان غطاءًا لهما وسترًا وحفظًا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغبار ويكنانهما من البارد المؤذي والحار المؤذي، ثم غرس في أطراف تلك الأجفان الأهداب جمالاً وزينة ولمنافع أخرى وراء الجمال والزينة، ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق مابين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزًا لرؤية مافوقها من الكواكب، وقد أو.ع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السماوات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها.

الأذن:

وشق له السمع، وخلق الأذن أحسن خلقة وأبلغها في حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليُحِسَّ بدبيب

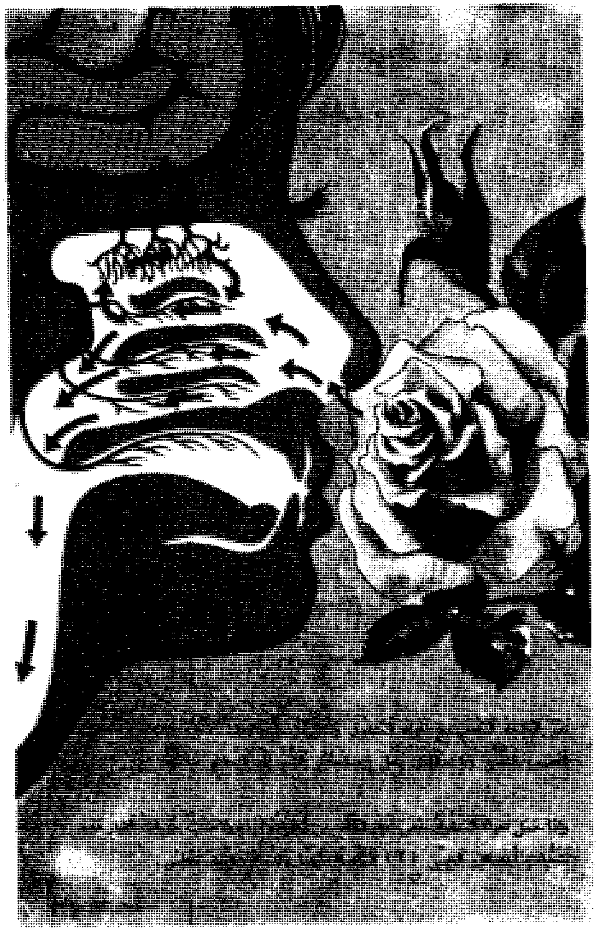

الأنف وحاسة الشم

تعبر الرائحة المنخر مع الهواء المنشوق و تنتشر في التجاويف الأنفية فتلامس تشعبات العصب الشمي الذي ينقل إحساسات الشم إلى الدماغ مباشرة. وإذا حمل الهواء المنشوق بعض غبار الطلع من زهرة أو وردة ولامست حبيبات الغبار هذه تشعبات أعصاب الحس المتصلة أيضًا بالدماغ فإنك تعطس.

تدوم الرائحة ثلاثة دقائق ثم تختفي أو تعتاد عليها وحاسة الشم لاتزال محيرة للعلماء فهم يقولون أن الرائحة حينما تدخل الأنف تلتقطها الأعصاب الشمية الموجودة في سقف اللثة حيث تنتقل إلى منطقة مخاطية لتنحل فيها وتتفاعل معها حيث توجد هناك آلاف الشعيرات «الأهداب» المتخصصة في التحلل الكيميائي حيث تقسم إلى ٦ ـ ٨ موصلات عصبية تنقل نتائج التحليل إلى الدماغ.

والروائح الأساسية سبعة وبقية الروائح تأتي مزيجًا من ذلك. فسبحان الذي خلق وأبدع وصوّر.

الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه وجعل فيها غضونًا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ، ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لإمساكه، وفيه أيضًا حكمٌ غير ذلك.

ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرًا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولايقطعه داخلاً إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه، وجعل ماء العينين ملحًا ليحفظها فإنها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظًا. وجعل ماء الفم عذبًا حلوًا ليدرك به طعوم الأشياء على ماهي عليه إذ لو كان على غير هذه الصفة لأحالها إلى طبيعته كما أن من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التي ليست بمرة كما قيل:

ومن يك ذا فمٍ مرٍ من مريضٍ
يجد مرًا به الماء الزلالا

الأنف:

ونصب سبحانه قصبة الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل في داخله الإعوجاجات والغضون ماجعل في الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها، وجعله سبحانه مصبًا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله إذًا لأن أسفله إذا كان واسعًا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأة ثم يتصاعد في مجراه قليلاً حتى يصل إلى القلب وصولاً لايضره ولايزعجه، ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترًا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل في وسطه حاجزًا لئلا يفسد بما يجري فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما يجري فيهما فينقسم فلا ينسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل

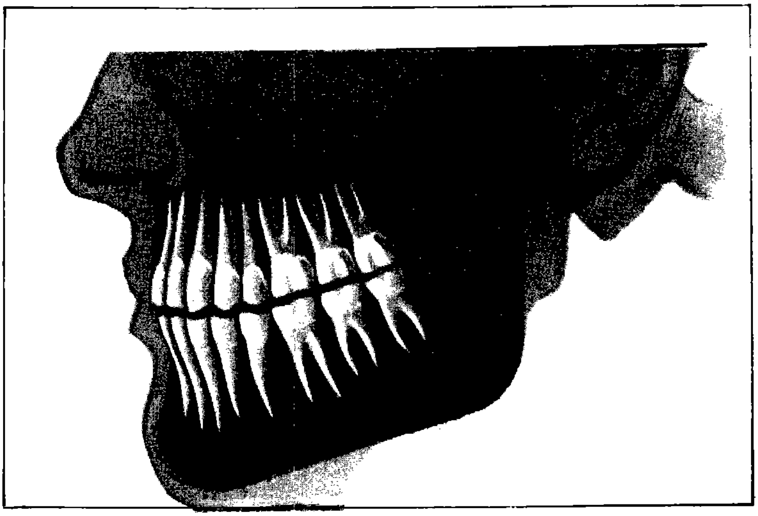

شكل الأسنان وهي مغروسة في الفك العلوي والسفلي كل اثنين متجانسين متقابلين.

السن وتركيبه الداخلي.

للتنفس وأيضًا فإنه لما كان عضوًا واحدًا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فإنه ربما أصيبت أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين في الوجه شيئًا ظاهرًا فنصب فيه أنفًا واحدًا وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجري مجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين.

الفـم:

وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه المنافع وآلات الـذوق والكلام وآلات الطحن والقطع مايبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء مبينًا مؤديًا عنه، كما جعل الأذن رسولاً مؤديًا مبلغًا إليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه مايريد، (واقتضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصونًا محفوظًا مستورًا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسـان مؤديًا منـه إلى الخارج جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة في إبرازه لأنه لايأخذ من الخارج إلى القلب، وأيضًا فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر وأيضًا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لايتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزًا صار عرضةً للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد.

الأسـنـان:

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هي جمال له وزينته وبها قوام العبـد وغـذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضًا آلة للقطع فأحكم أصولها وحـدد رؤوسها وبيَّض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضًا وصفاءً وحسنًا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ماأودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما

وجعلهما غطاءً للفم وجعلهما إتمامًا لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وماجاوره وسطًا ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة، واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحمًا صرفًا لا عظم فيه ولاعصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما، وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة، وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولايكاد يشتبه صوتان، إلا نادرًا ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصر بينهم بصورهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور.

الشعر:

وزين سبحانه الرأس بالشعر وجعله لباسًا له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الذقن باللحية وجعلها كمالاً ووقارًا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتها من العنفقة.

اليدان والأصابع والأظفار:

وكذلك خلقه سبحانه لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأسمال معاشه فطوّلها بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرّض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل والإبهام باثنتين ووضع الأصابع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام[1] على الجميع

---

[1] قال تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان ألَّن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه**﴾. القيامة ٣ و٤.

ولايمكن أن تتشابه بصمتان في العالم سواء مامر من تاريخ وجود الإنسان على الأرض، أو حاليًا بتعداد البشرية الذي بلغ ٣٨٠٠ مليون إنسان، أو مايتوقع =

فجـاءت على أحسن وضـع صلحت به للقبض ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولـون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعًا للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا، فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقًا واحدًا كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك، فإن بسط أصابعه كانت طبقًا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسًا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله.

وركب الأظفار على رؤوسها زينةً لها وعمادًا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع وجعلها سلاحًا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته إليه ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة.

= للمستقبل من مجيء بشر جدد لعمارة الكون. إن هناك قانونًا حيويًا وهو أن الطبيعة (والتي خلقها الله) لاتكرر نفسها مطلقًا على مستوى النبات والحيوان أو الإنسان، ويعود السر إلى مائة ميزة للبصمة بحيث أن تفريعاتها تصل إلى حد إصابة الإنسان بالدوار عندما يتصور احتمال تطابق البصمتين، سواء بين إنسان وآخر أو في الإنسان الواحد بين أصبع وأخرى من أصابعه العشرة، كما لايتم تطابق أصابع التوأمين، إن هذا الأمر العجيب جعل دول العالم اليوم تتبنى البصمات كعلم إثبات يقيني في تعيين شخصية الإنسان لما فيها من ثبات وفردية بدءًا من أول هذا القرن، ويكفي أن نعلم أن بصمات مومياء مصرية أخذت وكأنها بنت اليوم وكذلك بصمات جثة في الدانمرك أرجعها الأخصائيون إلى مايزيد على ٢٠٠٠ سنة. إن هذا يذكرنا بإعجاز القرآن العلمي قال تعالى: (بلى قادرين على أن نسوي بنانه).

تركيب العظام:

ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام آلية دونها في الثخانة والصلابة لأنها محمولة، ثم انظر كيف جعل الرقبة مركبًا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبًا محكمًا متقنًا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة بعضها في بعض هي مجمع أضلاعه والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل، ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين بالكف والأصابع، وانظر كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظمًا، مائتان وثمانية وأربعون مفصلاً وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل، فلو زادت عظمًا واحدًا لكان مضرة على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظمًا واحدًا كان نقصانًا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه، وكم بين النظرين.

السادس:

ثم إنه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطًا وهي مختلفة في الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها، فجعل منها أربعة وعشرين رباطًا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها لو نقصت منهن رباطًا واحدًا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كالآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين فويل للمكذبين وبعدًا للجاحدين.

العمود الفقري

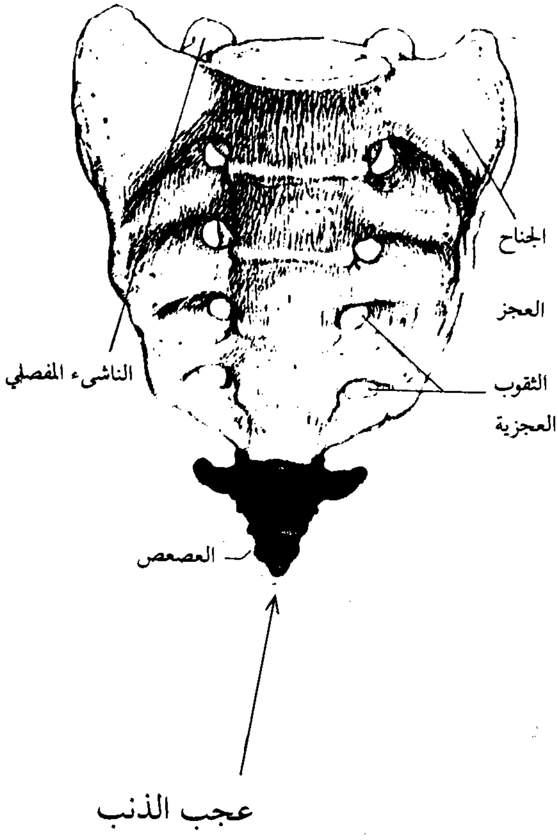

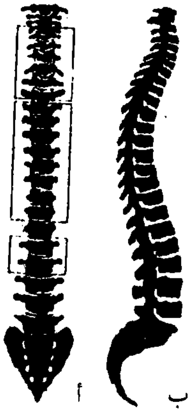

الشكل ٦٠
العمود الفقري في منظر أمامي (أ) وجانبي (ب) لاظهار الإنحناء الجانبي (في المستوى الجبهي) والأمامي الخلفي (في المستوى السهمي) المستطيلات تحد الأوضاع التي تبدو بها الإنحناءات الجانبية.

قال الرسول محمد ﷺ:

«إن في الإنسان عظمًا لاتأكله الأرض أبدًا، فيه يركب يوم القيامة.
قالوا: أي عظم يارسول الله؟ قال: عجب الذنب».

[رواه البخاري].

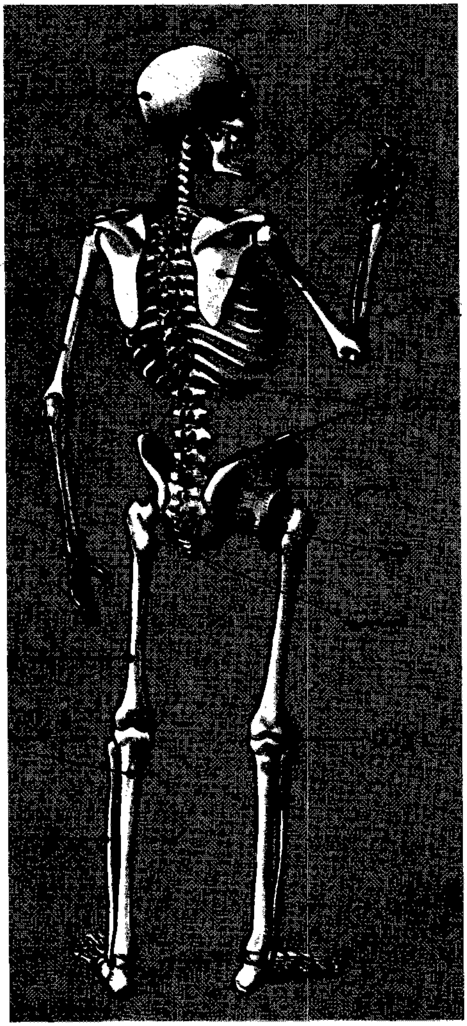

الهيكل العظمي

«إن عظم الساق ليحمل ضغطًا يصل إلى نصف الطن»

(اكتشاف علمي)

السلامى والعضلات والروابط لها أشكال متعددة حيث يحوي الجسم البشري أكثر من ٦٠٠ عضلة، وأكثر من ٢٠٠ عظم، وتحوي العضلة المتوسطة الحجم على ١٠ ملايين ليف عضلي، وتحوي عظمة الفخذ أكثر من ٣٠ ألف عمود كلسي خاص.

كما أن عمل العضلات مجتمعة في اليوم يساوي ما حمولته ٢٠ طن.

القلب وعلاقته ببقية الأعضاء

ومن عجائب خلقه أنه جعل في الرأس ثلاثة خزائن نافذًا بعضها إلى بعض خزانة في مقدمته وخزانة في وسطه، وخزانة في آخره وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل، (ومن عجائب خلقه) ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع. فأما القلب فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر في الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والإرادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات فإن رأت شيئًا أدته إليه ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه،ولهذا كثيرًا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾. وقوله: ﴿**وجعلنا لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة**﴾ وقوله: ﴿**صم بكم عمي**﴾ وقد تقدم ذلك،وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم**﴾ وقوله في حق رسوله محمد ﷺ: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ ثم قال: ﴿**مازاغ البصر وما طغى**﴾ وكذلك الأذن هي رسوله المؤدي إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده.

وقال النبي ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب**»، وقال أبوهريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده، وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائمًا لأنه مرشد الأعضاء بل هو منبع الحرارة.

القلب

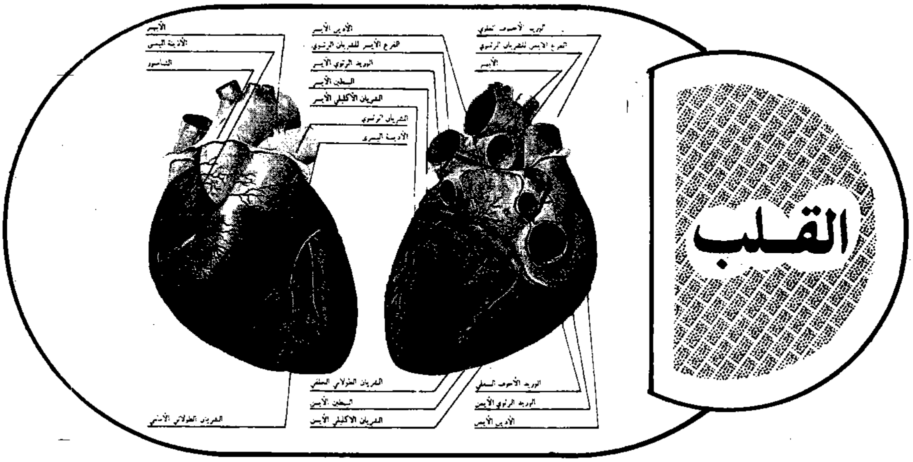

* وزن القلب حوالي ٣١٢ غرامًا، حجمه في قبضة اليد، تبلغ ضربات قلب الرجل حوالي ٦٠-٨٠/د وينبض في العام حوالي ٤٠ مليون مرة، وفي كل نبضة يدخل القلب حوالي ربع رطل من الدم ويضخ في يوم واحد ٢٢٠٠ جالونا من الدم، وحوالي ٥٦ مليون جالون على مدى حياة بأكملها، ترى هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل تلك الفترة الطويلة، دون أن يحتاج لإصلاح؟

* ويستطيع القلب إذا استعمل كآلة محركة أن يرفع ثقلاً مقداره رطلين إلى ارتفاع قدمين بنفس الجهد الذي يبذله في نبضة واحدة.

* ويبلغ مقدار الدم الذي يدفعه قلب رجل صحيح أثناء القيام بتمارين قاسية حوالي ٢٠ ليترًا في الدقيقة، ويستغرق مرور دفعة واحدة من الدم خلال القلب حوالي ١,٥ ليترًا في الدقيقة، ويستغرق مرور دفعة واحدة من الدم خلال القلب حوالي ١,٥ ثانية، والطريق من القلب إلى الرئة ثم إلى القلب مرة أخرى (الدورة الصغرى) ست ثوان.

* يضخ القلب يوميًا ٨٠٠٠ ليتر من الدم داخل الجملة الدورانية التي تمتد حوالي (١٥٠) كيلو متر طولاً عبر كل أنسجة البدن، ناقلة الدم بما فيه من غذاء وأكسجين، ويكفي أن نعرف حيوية النقل عندما يتخرب الدماغ بشكل لا رجعة فيه عندما ينقطع ورود الأكسجين عنه لمدة خمسة دقائق فقط.

الدماغ وعلاقته بالقلب :

وأما الدماغ وهو المخ فإنه جُعل باردًا واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة : إنما كان الدماغ باردًا لتبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت : لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدًا عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة أو يكون قريبًا منه في الصدر ليكسر حرارته ، قالت الفرقة الأولى : بُعدُ الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته ، وتوسطت فرقة أخرى وقالت : بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قارٍ صافٍ عن الأقذار والكدر خالٍ من الجلبة والزجل ، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته ، ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلاً في ذلك صالحًا له . ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية .

سؤال : الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ ؟

قالت طائفة : مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك ، وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواس .

قالوا : العين إذا بصرْت شيئًا أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب ، والسمع إذا أحس صوتًا أدّاه إلى القلب ، وكذلك كل حاسة ، ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا : إن قيل كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس

الدورة الدموية

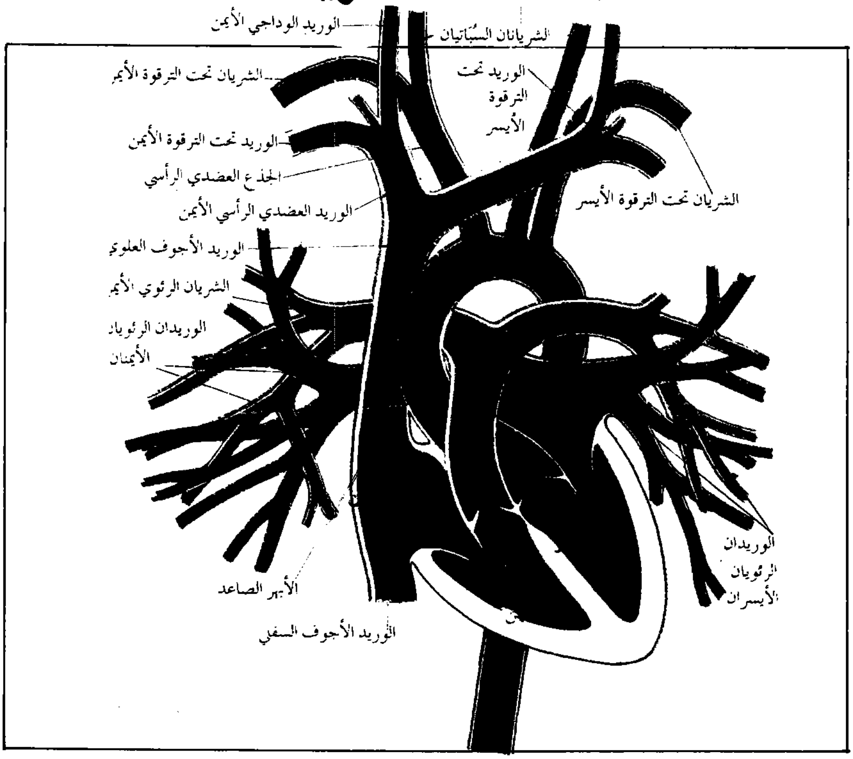

مداخل ومخارج الدم الرئيسية في القلب:

* في الدم الكامل ٢٥ مليون مليون كرية حمراء لنقل الأكسجين، و٢٥ مليار كرية بيضاء لمقاومة الجراثيم ومناعة البدن، وهي بخمسة أشكال، ومليون مليون صفيحة دموية لحفظ الدم ضد النزف وإيجاد التخثر في أي عرق نازف، وتتكون هذه الخلايا بصورة أساسية من مخ العظام الذي يصب في الدم بمعدل ٢,٥ مليون كرية حمراء في الثانية و٥ ملايين صفيحة و١٢٠ ألف كرية بيضاء، وجدير بالذكر أن الكريات الحمر تقوم بنقل ٦٠٠ ليتر من الأكسجين لخلايا الجسم كل ٢٤ ساعة. وفي حالة وجود جرح في الجسم فإن الجسم يضاعف من الطاقة الإنتاجية للكرات البيضاء الواقية إلى عشرة أضعاف حيث إن كل كرية بيضاء تقوم بإطلاق سم قاتل للبكتريا كما تستطيع التهام ٤٠ من البكتريا.

مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى، وأجابوا عن ذلك بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة، فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالاً قريبا، أو بعيدًا، قالوا: وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكـون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى، ولهذا كان الرأي الصحيح أنه أول الأعضاء تكوينا. قالوا: ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون وقالوا: بل العقل في الرأس، فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقـرآن قد دل على هذا بقـوله: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها**﴾ وقال تعالى: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب**﴾.

ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب، ونازعهم في ذلك طائفة أخرى وقالوا: مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة (والصواب التوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب. وبهذا يزول الإلتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب. والمقصود التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التي فيهـا خلق الإنسـان والأمـر أضعف أضعاف ما يخطر بالبال أو يجري فيه المقال(١) وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها.

---

(١) ولو أعطي العلامة بن القيم من الآلات الحديثة التي استطاع الطب بواسطتها إزاحة الستار عن خفايا علوم كثيرة جدًا تختص بـ علم وظائف الأعضاء والتشخيص بواسطة التصوير المغناطيسي واستعمال الأشعة النووية في الدراسات والبحث لرأيت وقرأت مايعجب له كل طبيب ويسبح الله له كل لبيب.

عمليـة الهضـم :

وإذا نظر العبـد إلى غذائـه فقط في مدخله ومستقـره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغرًا ثم طاحون يطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقًا إلى جانب النفس ينزل هذا! ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقًا توصله إلى المعدة فهي خزانته وموضع اجتماعه ولها بابان أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه تفله، والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل منطبق دائمًا ليستقر الطعام في موضعه فإذا انتهى الهضم فإن ذلك الباب ينفتـح إلى انقضـاء الـدفـع ويسمى البواب لذلك، والأعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل إلى المعدة متماسكًا فإذا استقر فيها انماع وذاب، ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ماهو مستحجر كالحصا وغيره حتى يتركه مائعًا.

فإذا أذابته علا صفوه إلى فوق ورسا كدره إلى أسفل، ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف مافي ذلك وألطفه وأخفه إلى الأرواح فيبعث إلى البصر بصرًا وإلى السمع سمعًا وإلى الشم شمًا إلى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف مايتولد عن الغذاء، ثم ينبعث منه إلى الدماغ ماينا سبه في اللطافة والاعتدال، ثم ينبعث من الباقي إلى الأعضـاء في تلك المجـاري بحسبهـا وينبعث منه إلى العظم والشعر والأظفار مايغذيها ويحفظها فيكون الغذاء داخلاً إلى المعدة من طرق ومجار وخارجًا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار هذا وارد إليها وهذا صادر عنها، حكمة بالغة ونعمة سابغة، ولما كان الغذاء إذا استحال في المعدة استحال دمًا ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغمًا، اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من الأخلاط مصرفًا ينصب إليه ويجتمع فيه ولاينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله، فوضع المرارة مصبًا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرًا للمرة السوداء والكبد تمتص أشرف مافي ذلك وهو الدم ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل إلى كل واحدٍ من الشعور والأعصاب والعظام والعروق مايكون به قوامه.

الجهاز الهضمي

المعدة والأمعاء

* في المعدة ٣٥ مليون غدة للإفراز وفي الأمعاء ٣٦٠٠ زغابة معوية للامتصاص في كل ١سم مربع، وفي ٢٥٠٠ زغابة.

* لقد ثبت أن الخلية المعوية تولد وتعيش وتموت في ٤٨ ساعة وتتجدد الخلايا المعـوية باستمـرار ولايتبع هذا النظام في الجسم إلا الدم، مع العلم أن طول الأمعاء حوالي ٨ أمتار وتفرش مساحة ٤٠ متر مربع للامتصاص بزغابات معوية تبلغ المليارات. حيث يتم امتصـــاص كافـة أنـواع الأغـذية والمـاء والأمـلاح والفيتامينات بل وحتى المواد الضارة أحيانًا.

* الخـلايا الجـدارية التي تفرز حمض كلور الماء في المعدة (HCL)قُدِّر عددها بـ (مليار) خلية، والطاقة الإفرازية في مدى ١٢ ساعة بعد التنبيه بالهستامين ١٦ ملي مكافيء، وتركيز الإفراز هو مابين ٢ ـ ٤ بالألف بشكل ثابت ومركز.

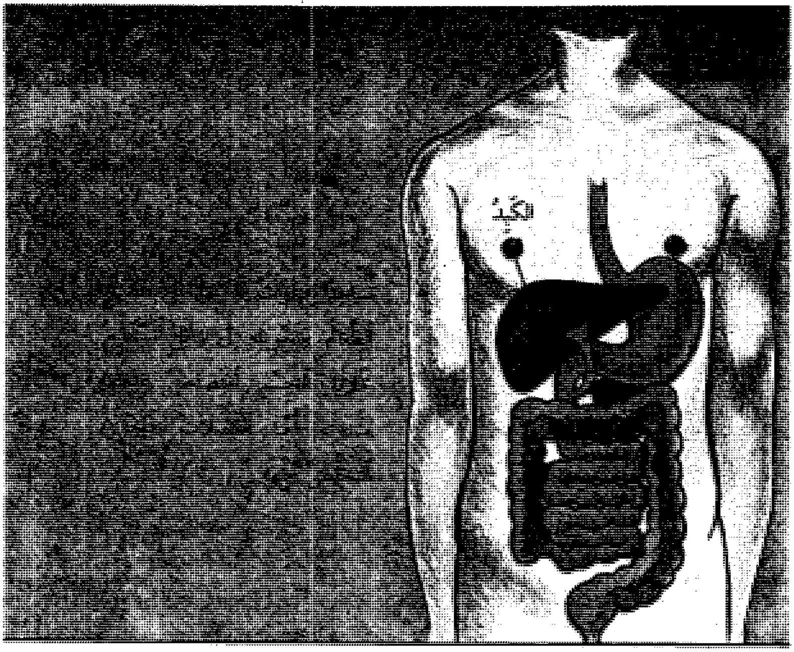

الكبـد

يعتـبر الكبد أكبر غدد البدن إذ يزن ١٥٠٠ غرام ويحوي ٣٠٠ مليار خلية يمكن أن تتجدد كليًا خلال أربعة أشهر فخلاياه أسرع من خلايا الجنين المعروفة بسرعـة الانقسـام، ووظـائف الكبد مدهشة مابين مستودعات السكر والدهن والفيتامين أو احتجاز السموم وقلبها إلى مواد غير ضارة، أو تحويل الفضلات مثل النشادر الناتج عن فضلات البروتين إلى مادة غير ضارة هي البولة، ويبقى الكبد مركز التموين الرئيسي لسكر الدم، وبروتينات الدم، والحفاظ على تخثره بتكوين مولد الليفين. كما يقوم بإفراز الأصبغية، وتكوين الكلسترول ذو الشخصيات السبعة.

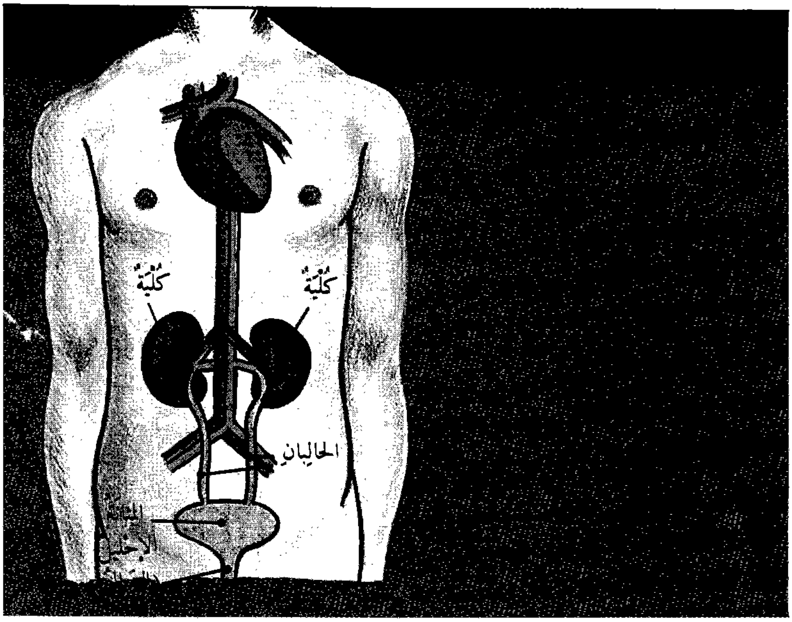

الكليـــة

تزن الكلية الـواحـدة ١٥٠ غرامًا. فيها مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم تسمى (النفرونات) ويرد إلى الكلية في مدى ٢٤ ساعة ١٨٠٠ ليتر من الدم، ويتم رشح ١٨٠ لتر منه ويعاد امتصاص معظمه ويطرح منه حوالي ١,٥ لتر وهو المعروف بالبول. ويبلغ طول أنابيب النفرونات حوالي (٥٠) كيلو مترا، وبهذه الـطريقـة يتم تصفية الـدم من كل شوائبـه وبشكل مدهش وكأننا نرى أمانة العاصمة وهي تنظف ليس مرة واحدة في اليوم بل ٣٦ مرة ويزيد. ولاتقف وظائف الكلية عند التصفية بل فيها جهاز منبه (مصنع العظام النقي لتنظيم إفراز عناصر الدم. كما أن فيهـا جهـاز منـظم لضغط الـدم بالتعـاون مع الكبـد وهـو مايسمى (بـالهـايبرتنسـين Hypertension) وفـوق الكلية تشريع غدة تزن سبعـة غرامات وهي الكظر وتفرز من قشرهـا عشرات الهرمونات المنظمة للسكاكر والأملاح والماء في البدن، ولإقرار شحنة الجنس. كما أن لب هذه الغدة يفرز مادة الأدرينالين المنظمة لتوتر الدم. .

من الذي دبَّرك بألطف التدبير؟

فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرةً ثانية، من الذي دبرك بألطف التدبير وأنت جنين في بطن أمك في موضع لايد تنالك ولابصر يدركك؟ ولاحيلة لك في التماس الغذاء ولافي دفع الضرر، فمن الذي أجرى إليك من دم الأم مايغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنًا؟ ولم يزل يغذيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب،حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوي أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الزريدي والتقلب على الغبراء، هاج الطلق بأمك فأزعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضةً من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيا بعد مابين ذلك القبول والاشتمال حين وُضِعت نطفةً وبين هذا الدفع والطرد والإخراج وكان مبتهجًا بحملك فصار يستغيث ويعج إلى ربك من ثقلك، فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت؟ ثم شمه عليك حتى حفظك وكملت؟ ثم فتح لك ذلك الباب ووسّعه حتى خرجت منه كلمح البصر؟ لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه، فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب ثم خروجك منه، لذهب بك العجب كل مذهب فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفةً حتى لاتفسد هناك؟ وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليمًا؟ إلى أن خرجت فريدًا وحيدًا ضعيفًا لاقشرة ولا لباس ولامتاع ولامال، أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم، فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها ثم ساقه إلى تينك الخزانتين ألطف سوق على مجارٍ وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفًا في طرقه ومجاريه حتى تستوفي مافي الخزانة فيجري وينساق إليك فهو بئر لاتنقطع مادتها ولاتنسد طرقها يسوقها إليك في ذرق لايهتدي إليها الطواف ولايسلكها الرجال، فمن رققه لك؟ وصفّاه وأطاب طعمه؟ وحسّن لونه وأحكم طبخه أعدل إحكام؟ لابالحار المؤذي ولابالبارد

الـردي، ولا المـر المالح ولاكريه الرائحة؟ بل قَلَبَه إلى ضربٍ آخر من التغذية والمنفعة خلاف ماكان في البطن،فوافاك في أشد أوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء، فحين تولد قد تلمَّظْتَ وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالإداوة قد تدلى إليك وأقبل بِدُرِّه عليك ثم جعل في رأسه تلك الحلمة التي هي بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ولاتتعب بالتقامها ثم نقب لك في رأسها نقبًا لطيفًا بحسب احتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقــه فتمصــه بكلفـة بل جعله بقـدرٍ اقتضتـه حكمتـه ومصلحتك، فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة، حتى تكون في أهنأ مايكون من شأنها وراحتها ومقيلتها؟ فإذا أحست منـك بأدنى صوتٍ أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقـادةً بغير قائد ولاسائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل مايؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء وأن حياتها تُزاد في حياتك، فمن الذي وضع ذلك في قلبها؟ حتى إذا قوي بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك، وضع في فيك آلة القطع والطحن فنصب لك أسنانًا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها فمن الذي حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفًا بها، ثم أعطاكها أيام أكلك رحمةً بك وإحسانًا إليك ولطفًا؟ بك فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك؟ ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لاتسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها؟ وكلما ازددت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل المطاعم المختلفة، زيد ذلك في تلك الآلات حتى تنتهي إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب، ثم إذا ازددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهك إلى الطواحين التي هي آخر الأضراس، فمن الذي ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء؟.

ثم إنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لاتعلم شيئًا بل غبيًا لاعقل ولافهم ولاعلم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لاتحتمل العقل والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئًا فشيئًا

المعثكلة

في المعثكلة (البانكرياس) قطاع لإفراز الخمائر التي تفرغ إلى الأمعاء الدقيقة حيث يتم هضم أنواع الطعام الثلاثة البروتينات والسكاكر والأدهان، وهناك قطاع ثاني متصل بالدم وهو المعروف بجزيرات لانفرهانس التي يبلغ عددها (٢٠٠,٠٠٠ - ١,٨٠٠,٠٠٠) فيها أربعة أنواع من الخلايا أهمها خلايا ألفا التي تفرز هورمون (الغلوكاكون) الذي يزيد من كمية السكر في الدم، وخلايا بيتا التي تفرز الأنسولين ومهمته الرئيسية حرق السكر في الجسم أو على الأقل اعطاؤه إلى الخلايا التي تستعمله كوقود للطاقة والحرارة، ويجب أن نعلم أن مقدار السكر في الدم هو غرام واحد فقط في كل لتر من الدم بنسبة ثابتة أي خمسة غرامات في كل الدم داخل العروق وهذا لايبقى في الدم أكثر من دقائق قليلة ومصدر التموين الرئيسي لسكر الدم هو الكبد بما يحوي من غليكوجين الذي يعتبر سكر مخفف.. والكبد هو العضو الذي يشرف على تحولات السكر من حل وأماهة أو تكثيف تجفيف.

فلا يصادفك ذلك وهلةً واحدة بل يصادفك يسيراً يسيراً حتى يتكامل فيك، واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سُبي صغيراً من بلده ومن بين أبويه ولاعقل له فإنه لايؤلمه ذلك وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشق عليه وأصعب حتى إذا كان عاقلاً فلا تراه إلا كالواله الحيران، ثم لو ولدت عاقلاً فهيمًا كحالك في كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لأنك ترى نفسك محمولاً رضيعًا معصبًا بالخرق مربطًا بالقُمط مسجونًا في المهد عاجزًا ضعيفًا عما يحاوله الكبير فكيف كانت تكون عيشتك مع تعقلك التام في هذه الحالة ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك مايوجد للمولود الطفل بل تكون أنكد خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وآثرهم فضولاً وكان دخولك هذا العالم وأنت غبي لاتعقل شيئًا ولاتعلم مافيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفةٍ ناقصة ثم لايزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئًا فشيئًا حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والإتقان لها، وفي ذلك وجود آخر من الحكمة غير ماذكرناه، فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب والآلات في وقت حاجتك لايقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنك؟

ثم إنه أعطاك الأظفار وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن أكثر العمل لما كان برؤوس الأصابع وعليها الاعتماد أعينت بالأظافر قوة لها، لما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذي لايخرج باللحم عنه، إلى غير ذلك من فوائد جمةّ.

ثم جملك بالشعر على الرأس زينةً ووقاية وصيانة من الحر والبرد إذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمرة العقل تنتهي إليه، ثم خُصَّ بالذَّكَر بأن جمّل وجهه باللحية وتوابعها وقارًا وهيبة له وجمالاً وفصلاً له عن سن الصبا وفرقًا بينه وبين الإناث وبقيت الأنثى على حالها لما خُلقت له من استمتاع الذكر بها فبقي وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع.

الذكر والأنثى

قال ابن القيم:

فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد فمن الذي أعطى الذكر الذكورية، والأنثى الأنثوية؟ ولاتلتفت إلى مايقوله الجهلة من الطبائعيين في سبب الإذكار والإيناث وإحالة ذلك على الأمور الطبيعية التي لاتكاد تُصدق في هذا الموضع إلا اتفاقًا، وكذبها أكثر من صدقها وليس استناد الإذكار والإيناث إلا إلى محض المرسوم الإلهي الذي يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول: يارب ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيوحي ربك مايشاء ويكتب الملك فإذا كان للطبيعة تأثير في الإذكار والإيناث فلها تأثير في الرزق والأجل والشقاوة والسعادة وإلا فلا، إذ مخرج الجميع مايوحيه الله إلى الملك ونحن لاننكر أن لذلك أسبابًا أخرى ولكن تلك من الأسباب التي استأثر الله بها دون البشر، قال الله تعالى: ﴿**لله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور**﴾.

فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال أحدها من تلد الإناث فقط، الثانية من تلدُ الذكور فقط، الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى،وهو معنى التزويج هنا أن يجعل مايهب له زوجين ذكرًا وأنثى، الرابعة العقيم التي لاتلد أصلاً، ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لايعلمه البشر ولايدرك بالقياس والفكر[1] وإنما يُعلم بالوحي ماروى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال:

كنت عند النبي، ﷺ، فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يامحمد فدفعته حتى كاد يُصْرع منها فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يارسول

---

(١) ومصداق هذا أن العلم الحديث قد اكتشف أن سبب الذكورة والأنوثة يكمن في نطفة الرجل التي سببها إحدى الكروموسومات وعددها ٢٣ والتي تكون في إحدى رؤوس الحيوانات المنوية التي تلقح بويضة المرأة التي تحتوي على ٢٣ كروموسومًا هي الأخرى فإذا ماالتحدا صارا ٢٣ + ٢٣ = ٤٦ كرومسومًا وهي مكونات الخلية الإنسانية الأولى.

الرحـــم

مراحل تلقيح البويضة وغرسها في الرحم لتصبح علقة

١ ـ الطبقة الخارجية التي تمسك بجدار الرحم ومنها تكون (المشيمة).

٢ ـ الطبقة الداخلية التي يتكون منها الجنين وأغشيته.

٣ ـ الطبقة التي تتكون منها المشيمة.

٤ ـ بعد التلقيح تنقسم الخلية إلى آلاف وملايين الخلايا وتسمى المشيج.

٥ ـ الأمشاج تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية التي تمسك بجدار الرحم ومنها تكون (المشيمة).

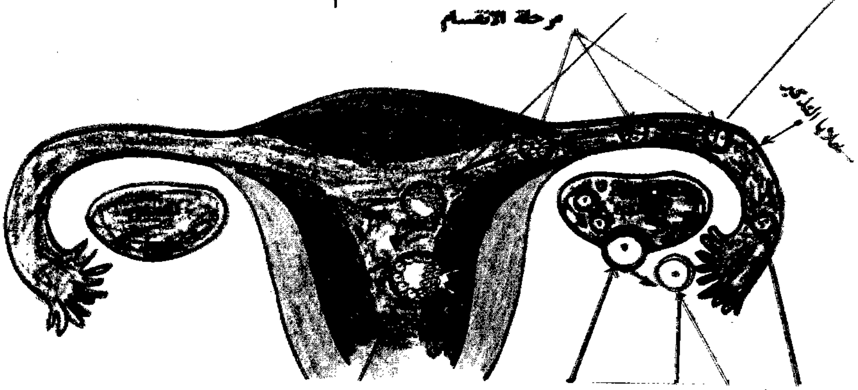

(١) تخرج البويضة من المبيض.

(٢) الأهداب تستقبل البويضة.

(٣) البويضة تلتقي بالحيوان المنوي ويتم الاتحاد (التلقيح).

الله فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله ، فقال رسول الله ، ﷺ : إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي ، قال اليهودي : جئت أسألك ، فقال رسول الله ، ﷺ : أينفعك شيء إن حدثتك؟ قال : أسمع بإذني فنكت رسول الله ، ﷺ بعود معه ، فقال : سل ، فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ : هم في الظلمة دون الجسر قال : فمن أول الناس إجازة؟ قال : فقراء المهاجرين ، قال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال : زيادة كبد ذي النون ، قال : فما غذاؤهم على أثرها؟ قال : يُنحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها ، قال : فما شرابهم عليه؟ قال : من عين تُسمى سلسبيلا؟ قال : صدقت. وجئت أسألك عن شيء لايعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان قال : ينفعك إن حدثتك قال : أسمع بأذني قال : جئت أسألك عن الولد قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله، وإن علا مني المرأة مني الرجل أنثى بإذن الله ، قال اليهودي : لقد صدقت وإنك لنبي ، ثم انصرف فقال رسول الله ، ﷺ : لقد سألني عنه ومالي علم به حتى أتاني الله به .

والذي دلّ عليه العقل والنقل أن الجنين يُخلق من الماءين فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه فيلتقي الماءان على أمرٍ قدره الله وشاءه فيخلق الولد بينهما جميعًا وأيهما غلب كان الشبه له . كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال : بلغ عبدالله بن سلام قدوم النبي ، ﷺ ، فأتاه فقال : إني سألتك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبي ، قال : ماأول أشراط الساعة؟ وماأول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول ، ﷺ : أخبرني بهن آنفًا جبريل فقال عبدالله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ، ﷺ : أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإن سبقت كان الشبه لها ، فقال أشهد أنك رسول الله وذكر الحديث .

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت يارسول الله إن الله لايستحي من الحق

هل على المرأة من غسل إذ' احتلمت؟قال:نعم إذا رأت الماء الأصفر، فضحكت أم سلمة فقالت أو تحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: فبم يشبهها الولد؟

فهذه الأحاديث الثلاثة على أن الولد يُخلق من الماءين، وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره للآخر وعلوه عليه وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة مايدل عليها ولاتُعلم إلا بالوحي وليس في صناعتهم أيضًا ماينافيها على أن في النفس من حديث ثوبان مافيها وأنه يخاف أن لايكون أحد رواته حفظه كما ينبغي وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لاعن الإذكار والإيناث، كما سأل عنه عبدالله بن سلام ولذلك لم يخرجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن أبي بكر عن أبي بكر عن أنس عن النبي ﷺ، قال: إن الله وكّل بالرحم ملكًا يقول: يارب نطفة،يارب علقة، مضغة، فإذا أراد أن يخلقها قال يارب أذكر أم أنثى، شقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمه، أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بها لاتأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل ولم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل، أولا ترى عبدالله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار مع أنه أبلغ من الشبه والله أعلم، وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق وعلى تقدير فهو يبطل مازعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث والله أعلم.

آلة التناسل للانسان

فانظر كيف جُعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على وفق الحكمة فجعلت في حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المني إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئاً يمد يده إليه حتى يوصله إياه، ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم، وأما الأنثى لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها لمّا كان ماء الرجل ينحدر من أجزاء الجسد

رقيقًا ضعيفًا لايُخلق منه الولد جعل له الأنثيان وعاءً يطبخ فيهما ويحكم فيهما ويحكم إنضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلاً لأن يكون مبدأ للتخليق ولم تحتج المرأة إلى ذاك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج غِلْظَ ماء الرجل وشدته قوي به واستحكم ولو كان الماءان رقيقين ضعيفين لم يتكون الولد منهما، وخُصَّ الرجل آلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وإنضاجه فيها ومنها أن ماءها لايخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله، ومنها أنها لما كانت محلاً للجماع أعطيت من الآلة مايليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه.

أجهزة الانسان وجمال خلقتها

فارجع الآن إلى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للإرب والمنفعة المهيأ لها، فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والإعطاء والمحاربة والدفع، والرجلان لحمل البدن والسعي والركوب وانتصاب القامة، والعينان للإهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية مافي السموات والأرض وآياتها وعجائبهما، والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك، والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه، واللسان للبيان والترجمة عنك، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك، واللسان يبلغ عنك، والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه إصلاحًا آخر وطبخاً آخر غير الإصلاح والطبخ الذي توليته من خارج، فأنت تعاني إنضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن أنه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وإنضاج آخر وطباخه الداخل ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه مالاتهتدي إليه ولاتقدر عليه فهو يوقد عليه نيرانًا تذيب الحصى وتذيب مالاتذيبه النار، وهي في ألطف موضع منك لاتحرقك ولاتلتهب وهي أشد حرارة من النار وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جداً حتى يجعلها ماءًا ذائبًا؟ وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء وألطفه ثم رتب منها مجاري وطرقًا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر، وجعل

هل جميع الخلايا متشابهة؟

تعريف الخلية:

هي وحـدة البنـاء في العضو وتختلف أشكال تلك الخلايا بحسب وظيفة العضو. والخلايا جمع خلية وهي أصغر الوحدات التركيبية(١) والوظيفية(٢) في النسيج الحي وتتكون من نواة ومادة حية تدعىٰ السيتوبلازم وتحتوي على ٤٦ كروموسومًا والتي تحمل في طياتها الصفات الوراثية.

(١) التركيبية أي التي يتركب منها العضو (عضل أو عظم أو دماغ أو عصب إلخ).

(٢) الوظيفية أي يكون لها وظيفة معينة في العضو فهذه الخلايا لبناء الشعر وهذه لبناء عدسة العين وهذه لبناء الدماغ وهكذا.

لاتختلف الخلايا عن بعضها البعض من حيث الحجم والوظيفة فحسب بل يختلف كل نوع منها عن الآخر من حيث الشكل اختلافًا كليًا. بعض الخلايا تبدو مثل قطرات حمراء صغيرة من الهلام (الجلاتين). وبعضها الآخر يتخذ أشكال لوالب بالغة الصغر، أو فطائر أو إبر أو علب أو سفن فضائية... وهناك خلايا ليس لها شكل معين على الإطلاق، لكن لأكثر الخلايا البنية الأساسية عينها.

المنـازل والأبـواب لإدخـالماينفعك وإخراج مايضرك وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك فهذه خزانة للطعام وهذه خزانة للحرارة وهذه خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخزائن الأخرى فجعل خزائن للمرة السوداء وأخرى للمرة الصفراء، وأخرى للبول وأخرى للمني فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسري منها في البدن فإنه إذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجيد صنعته ثم تبعثه إلى الكبد في مجار دقاق وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجاري غشاءًا رقيقًا كالمصفات الضيقة الأبخاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها لأن الكبد رقيقة لاتحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد أنفذته إلى البدن كله في مجار مهيأة له بمنزلة المجاري المعدة للماء ليسلك في الأرض فيعمهـا بالسقي،ثم يبعث مابقي من الخبث والفضـول إلى مغايض ومصارف قد أعدت لها فما كان مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وماكان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وماكان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة.

رد على الطبائعيين

فمن ذا الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدَّره أحسن تقدير؟ وكأني بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبرني عن هذه الطبيعة؟ أهي ذاتٌ قائمةٌ بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة؟ أم ليست كذلك؟ بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه! فإن قالت لك: بل هي ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة، فقل ها: هذا هو الخالق الباريء المصور، فلم تسمينه طبيعة؟ وبالله من ذكر الطبائع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله ودخلت في جملة العقلاء والسعداء فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى،وإن قالت لك: بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة وشعورٌ أصلًا وقد شوهد من آثارها ماشوهد. فقل لها: هذا مالايصدقه ذو عقل سليم. كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن

معـرفتهـا وعن القـدرة عليهـا ممن لاعقـل له ولاقدرة ولارحمة ولاشعور؟ وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين والمبرسمين؟ ثم قل لما بعد: ولو ثبت لك مادعيت فمعلومٌ أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولامبدعة لذاتها، فمن ربها ومبدعها وخالقها؟ ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك؟ فهي إذاً من أدل الدلائل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته. فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته إلا مخالفتك العقل ولو حاكمناك إلى الطبيعة لرأيناك أنك خارج عن موجبها. فلا أنت مع موجب العقل ولاالفطرة ولاالطبيعة ولا الإنسانية أصلاً وكفى بذلك جهلاً وضلالاً. فإن رجعت إلى العقل وقلت لايوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولاتدبير متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لايعجزه ولايؤوده. قيل لك: فإذا أقررت ويحك بالخلاق العظيم الذي لا إله غيره ولارب سواه. فدع تسميته طبيعة أو عقلاً فعالاً أو موجبًا بذاتـه وقـل: هذا هو الله الخالق الباريء المصور رب العالمين وقيوم السموات والأراضين ورب المشارق والمغارب الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن ماصنع. فما لك جحدت أسماءه وصفاته وذاته وأضفت صنيعه إلى غيره وخلقه إلى سواه؟ مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولابد.

معنى طبيعة

والحمد لله رب العالمين على أنك لو تأملت **قولة طبيعة ومعنى هذه** اللفظة لدلك على الخالق الباريء لفظها كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أي مطبوعة ولايحتمل غير هذا البتة لأنها على بناء الغرائز التي ركبت في الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ الطبيعة على الباريء تعالى كما دل معناها عليه. والمسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه ثم إنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء فيسلبها تأثيرها إذا أراد ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء ليرى عباده أنه وحده الخالق الباريء المصور وأنه يخلق مايشاء كما يشاء، قال تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**.

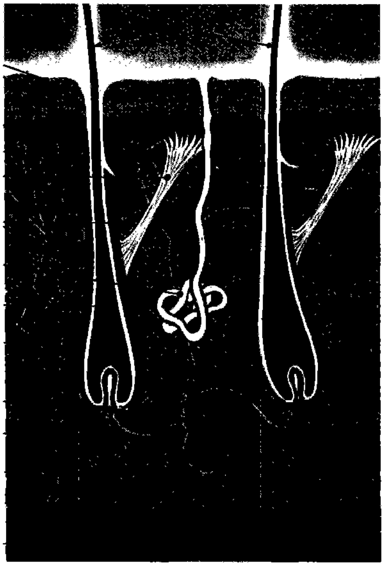

الجلد وبصلات الشعر

* تبلغ سماكة الجلد مقدارًا متفاوتًا مابين٥,. ملم على جفون العين إلى ٦ ملم في أخمص القدمين، وباستثناء بعض المناطق في الجلد مثل باطن اليد وكعب القدم فإن الجلد في جميع المناطق مغطى بالشعر، ويختلف العدد من ٤٠ إلى أكثر من ٨٠٠ شعرة/سم المربع، كما يوجد في كل سنتمتر مربع ٣٠٠ مسام عرقي. وهذا المسام يسمح بخروج السوائل منه إلى خارج البدن ولايسمح بالعكس أي دخول السوائل من خارج الجسم إلى داخله في صمام في اتجاه واحد.

* تحت سطح الجلد يوجد حوالي ٥ ـ ١٥ مليون مكيف لحرارة البدن، والمكيف هنا هو الغدة العرقية لأن تبخر العرق من الجلد يمتص معه نسبة عالية من حرارة البدن، وسطح الجلد الذي يبلغ ١,٨ متر مربع تتفاوت فيه الغدد العرقية قلة وكثرة. والغدة العرقية هي أنبوب متعرج طويل لضخ سائل العرق الذي يمتاز بصفات خاصة ويبلغ إفرازه اليومي حوالي اللتر، ومجموع أطوال أنابيب الغدد العرقية الموجودة تحت الجلد حوالي ٤ ـ ٥ كيلو مترات.

وإن الطبيعة التي انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هي خحق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته، فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ماجعلت له حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرةٌ بأمره، قال تعالى: ﴿**ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾.

أحسن تقويم

فأعد النظر في نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير في تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا تنتشر في البدن فتفسده ثم تأمل الحكمة البالغة في تنميتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل!ولو أن صائغاً أخذ تمثالاً من ذهب أو فضلة أو نحاس فأراد أن يجعله أكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك إلا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى؟والرب تعالى ينمي جسم الطفل وأعضاءه الظاهرة والباطنة وجميع أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لايتزايل ولاينفك ولاينقص. وأعجب من هذا كله تصويره في الرحم!حيث لاتراه العيون ولاتلمسه الأيدي ولاتصل إليه الآلات فيخرج بشرًا سويًا مستوفيًا لكل مافيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ ومافي ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفي الحكمة وبديع الصنعة!كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين!

ولا تستطل هذا الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فإن الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة، فانظر إلى بعض ماخصك به وفضلك به على البهائم المهملة إذ خلقك على هيئة تنتصب قائمًا وتستوي جالسًا وتستقبل الأشياء ببدنك وتقبل عليها بجملتك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير،ولو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وجهها لم يظهر لك فضيلة تميز واختصاص ولم يتهيأ منك ماتهيأ من هذه النسبة.

تكريم الله للانسـان

قال الله تعالى:

﴿ولقـد كرَّمنـا بني آدم وحملنـاهـم في الـبر والبحـر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم.﴾ الآية

فسبحـان من ألبسـه خلع الكـرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكـل والصـورة الحسنـة والهيئـة الشريفـة والقـد المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن.

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والمـلائكـة المـوكلون به يحفـظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والأفـلاك سخـرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته والعالم الجـوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وماأودع فيه والعالم السفلي كله مسخـر له مخلوق لمصـالحـه أرضـه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل مافيه كما قال تعالى:

﴿الله الذي سخَّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره﴾.

وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم﴾.

إلى قوله كفَّار فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعًا وأمـلًا صواعًا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضيًا بعيش بني جنسه لايرضى لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم يقول: لي أسوة بهم وهل أنا إلا

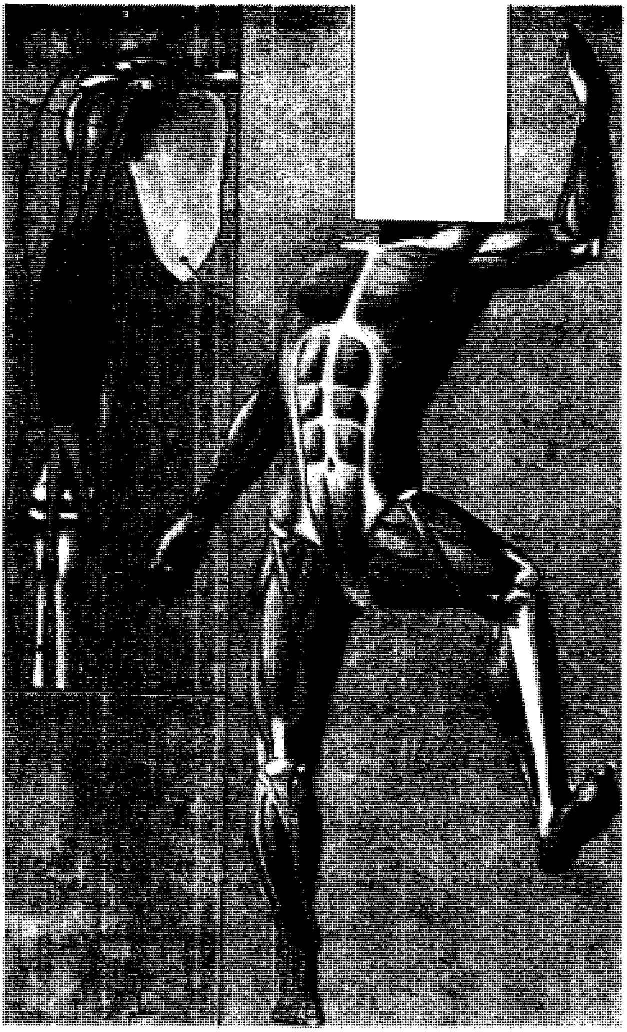

معجزة العضلات

* يحبو الطفل على الأرض أو يحك الإنسان أنفه: هل تصدق أن وراء هذه الحركات التي لا يعبــأ لها عمليات أدق وأعقـد من تركيب القنبلة الهيدروجينية لقـد حيرت العضلات أئمة العلم الباحثين وعزت أسرارها على أذهانهم الجبارة.

* تمثل العضلات أكثر من نصف الجسم البشري، وهي على حد تعبير أحد العلماء «أفخـر ما تعـرضـه الطبيعة في متجرها المملوء بالعجائب» حيث أنها تقوم بدورها

= الخطير منذ الولادة حتى الوفاة. . هي التي تبدأ بقذف الجنين من بطن أمه بحركة من عضلة الرحم. . وهي التي تمدنا بكل حرارتنا الداخلية تقريبًا. وهي التي تدفع الطعام إلى القناة الهضمية. وهي التي تمتص الهواء داخل الرئتين. وهي التي تعتصر الدموع من غدد الدموع.

وأخيراً هي التي تعلن نهاية الحياة إذ تتوقف عضلة القلب عن ضرباتها بعد أن تكون قد ضربت ٢,٥ بليون ضربة في سبعين عاما.

ويتحدث الناس كثيراً عن العضلات الحديدية ولا يدرون أن هذا القوام الحديدي الذي نلمسه عند انقباض العضلات تسببه مادة هلامية رخوة، وأن هذه المادة حين تنقبض تستطيع أن ترفع مايعادل وزنها ألف مرة. . أنها أغرب عجائب الطبيعة في جسم الإنسان.

إن سلسلة العمليات الكيميائية والكهربائية التي تحدث عند انقباض عضلة صغيرة في أقل من ثانية - مثل فتح العين أو إغماضها - هذه العمليات تستغرق ساعات بل أياما إذا حاول الباحث أن يعدّها في معمله.

والعضلات على أنواع ثلاثة:

- عضلات مخططة وهي عضلات الحركة الإرادية وتبدو كحزمة من شعيرات دقيقة وهي التي تدفعنا عندما نسير، وبها نرفع ملعقة الطعام ونهز بها الرؤوس!.
- وتأتي بعد ذلك العضلات الناعمة المسطحة، وهي التي تتحكم في الحركات اللاإرادية. . مثل خض الأمعاء للطعام أثناء الهضم، وفتح حدقة العين.
- والنوع الثالث يوجد في القلب. وهو في تكوينه وسط بين النوعين الآخرين.

والأنواع الثلاثة جميعًا ليست إلا آلات لتحويل الطاقة الكيميائية (أي الطعام) إلى طاقة ميكانيكية (أي العمل).

وقد كتب مئات من الكتب والنشرات عن العضلات ولكن واحدًا منها لم يستطع أن يشرح لنا شرحًا كاملاً كيف تنقبض العضلات أو كيف تهتز أصبع القدم! فسبحان من قال: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

من ربيعة أو مضر وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة فاستلان ماستوعره البطّالون وأنس بها استوحش منه الجاهلون.

نعمة الحـواس

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاّق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لنتمكن بها من مطالعـة الأشياء ولم تجعـل في الأعضـاء التي تمتهن كاليدين والـرجلين فتتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات،ولاجعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك التلفت والاطلاع على الأشياء،فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها فالرأس صومعة الحواس.

ثم تأمّل الحكمة في أن جعل الحواس خمسًا في مقابلة المحسوسات الخمس ليلقى خمسًـا بخمس كي لايبقى شيء من المحسـوسات لايناله بحاسة فجعل البصر في مقابلة المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الـروائـح المختلفـات والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات واللمس في مقابلة الملموسات فأي محسوس بقي بلا حاسة ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعـطاك له حاسة سادسة ولما كان ماعداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الأخماس التي جرت عليها ألسنة العامة والخاصة حيث يقولون في المفكر المتأمل: ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته الست وأرادوا بذلك أنه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره.

مساعدات للحواس

ثم أعينت هذه الحـواس بمخلوقـات أخـر منفصلة عنهـا تكون واسطة في إحساسها(١) فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره

---

(١) أي أن الله سبحانه وتعالى له حكمة في أن جعل تلك الحواس بقدر مانحتاج

فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئًا. وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل

= ولـو قلّتْ لاختـل نظام حياتنا ولو زادت لشقى الإنسان بالقوة الخارقة لحواسة وإليك تلك الحقيقـة العلمية التي تقـول:«ولـو كان لحواس الإنسـان من القوة لاستـطاع أن يرى الميكـروبـات التي تكتنفـه والإشعاعات التي تخترق جسمه والأصوات التي تصدر عن الكائنات الدقيقة المختلفة، ولاختل عقله وشقى بحياتـه، إن أبصارنا ـ لو قويت ـ فاستطعنا أن نرى الأشعة الضوئية والحرارية في درجاتها المختلفة، لرأينا أجسام البشر والحيوانات فيما نعده الآن ظلامًا تامًا بفضل ماتشعه من موجات حرارية، ولاستطاع الطبيب أن يدرك إصابة المريض بالحمى حالمًا يقـع عليه بصره، ولاستـطعنـا أن نعـرف إذا كانت المكـاوي والأجهزة الكهربائية ساخنة بمجرد النظر إليها. ولرأينا ألوانًا جديدة لم يسبق لنا رؤيتها،

وسوف لانسمع فقط طنين أجهزة أشعة الفحص عند إدارتها، بل سوف نرى ونسمـع الموجات الكهربائية وهي تخترق أجسامنا. وسوف لايحتاج الأطباء إلى لوحات فوسفورية أو أفلام حساسة ليسجلوا عليها هذه الأضواء، لأنهم سوف يرون ظلال أعضائنا الداخلية والعظام والمواد الغريبة في الجسم مباشرةً، وسوف نرى إشعاعات اليورانيوم وأشباهه من المعادن.

والأنفاق والكهوف التي تقع على عمق أمتار من سطح الأرض سوف لاتكون ـ بالنسبة لنا ـ خلوا من الضوء إطلاقًا، لأن الأشعة الكونية الغامضة تنفذ من أسقفها، وسوف نستطيع بقوة بصرنا رؤية ملايين الفيروسات والبكتريا الضارة والنـافعة التي يزخر بها الهواء وتختلط بالأطعمة والملبوسات، وخاصة تلك التي تتطاير مع الرذاذ عند العطس والسعال فتمتلىء أنفسنا ذعرًا من المرض ورعبا من الموت.

ولو قويت حاسة السمع عما هي عليه، لغدت ضوضاء السيارات في المدن وضجيج المصانع كهزيم الرعد أو قصف المدافع وانفجار القنابل، ولن نحظى بسكـون الليل حتى في أهـدأ الأماكن لما سوف نسمعه من أصوات الوطاويط وغيرها من الحشرات التي تحدث جلبة لاتحس بها آذاننا الحالية.=

الأصوات في الجو ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئًا. وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئًا. وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ولهذا لم يكن له طعم لاحلو ولاحامض ولامالح ولاحريف لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولايحصل به مقصوده. وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها لأنها تدركها بالإجتماع والملامسة فلم تحتج إلى واسطة.

= ولو استطعنا أن نحجز عنا جميع هذه الأصوات الخارجية لما استطعنا أن نحجز أصوات دقات ساعات اليد القريبة منا وخفقات قلوبنا، بل نبضات الأعضاء الداخلية في أجسامنا. بل سوف نسمع لارتطام ذرات الهواء بأجسامنا، مايشبه وقع قطرات المطر على ألواح من الصفيح، وهذه الأصوات سوف تكون مزعجة بصفة خاصة في الصيف، فإن ارتفاع درجة حرارة الجو يزيد من حركة الغبار.

وهب أن حاسة الشم عندنا قويت كما هي الحال عند بعض الحيوانات، فإننا سوف نستغني عن الكلاب البوليسية، إذ نميز بين الأعداء والأصدقاء من مسافات بعيدة عن طريق رائحتهم، وسوف ننفر من كثيرين ممن نخالطهم بسبب روائحهم الكريهة. وسوف يحسب الجنود حساب اتجاهات الرياح خشية أن تنقل روائحه للأعداء.

ولكي تزيد حاسة اللمس عندنا، لابد أن تكون أطراف الأعصاب أكثر انتشارًا على سطح الجسم، وخاصة في المناطق التي تخلو أو تقل فيها مثل الظهر، فغالبًا مايعجز المرء في هذه المناطق عن التمييز بين وخزة من دبوس يبعد أحدهما عن الآخر ربع بوصة، بينما تستطيع أطراف الأصابع أن تميز جيدًا بين الحالتين ولو حدث ذلك لكان طامة كبرى، فإن ملابسنا الداخلية الصوفية - بل والقطنية - سوف تغدو أشبه بإبر مسلطة فوق أجسامنا.

وإن تلف أي جزء بسيط في خلايا الدماغ يؤدي إلى فقدان الإتصال بينه وبين ذلك العضو ومن ذلك ترى أهمية الامتثال لأمر الرسول ﷺ بعدم ضرب الوجه وعدم التقبيح. (عن كتاب جسمك بيت العجائب بتصرف).

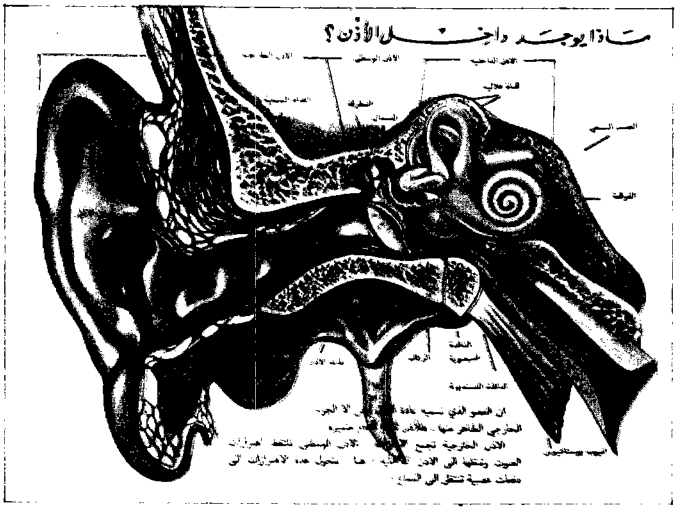

الأذن وتركيبها

في عضو كورتي الذي يمثل شبكية الأذن وفيه حوالي ألف خلية سمعية لنقل كافة أنواع الأصوات، وحساسيته عظيمة، وعضو كورتي هذا يمثل الأذن الباطنية حيث نرى الحلزون الذي يضم عضو كورتي ويشكل ٢,٥ دورة، بالإضافة إلى ذلك نرى الدهليز الممثل في القريبة والكييس، وفي الأقنية نصف الدائرية المسؤولة عن التوازن في الإنسان،حيث يمثل التوازن أمرًا معقدًا جدًا يشترك فيه الدماغ والمخيخ والأذن الباطنة، وتعتبر الأخيرة المسؤول المحيطي في حين تعتبر العناصر الأولى المناطق المركزية المسؤولة عن التوازن. . والسؤال كيف يتم التوازن بمثل هذه الدقة؟ والجواب:أن الأمر على درجة كبيرة من التعقيد لم يحلَّ الطب بعدُ ألغازها حتى اليوم .ويكفي أن نعلم أن الأذن الباطنة فيها قسم يسمى التيه (Labyrinth) لأن الباحث يكاد يتيه من أشكال الدهاليز،والممرات، والجدر، والحفر، والغرف، والفوهات، والاتصالات، وشبكة التنظيم، والعلاقات الموجودة داخل هذا القسم. .

وهناك اتصال مابين الأذن الباطنة والوسطى بواسطة نافذتين:هما المدورة، والبيضية.وبواسطة النافذة المدورة العلوية يتم الاتصال مابين الأذن الوسطى بعظيماتها الثلاث ومابين داخل الأذن الباطنة، والعظيم الذي يستقر على النافذة =

= المدورة هو عظم الركابة، في حين أن العظم الذي يستند على غشاء الطبل هو المطرقة، ويصل مابين العظمين عظم السندان، بالإضافة إلى عضلتين،وهذه المجموعة تشكل الأذن الوسطى التي تتصل بالبلعوم بواسطة(نفير أو ستاش)الذي ينظم الضغط بين الأذن الوسطى والخارجية، والذي يفصل بينهما غشاء الطبل، ويعتبر صيوان الأذن مجمع الصوت الخارجي الذي يقوده إلى غشاء الطبل الذي يوقع اهتزازاته على عظيمات السمع والتي تنقله بأمانة إلى النافذة المدورة التي تحمله بدورها إلى الأذن الباطنة التي تقوم بتفسيره ونقله بشكل سيالة عصبية إلى المركز السمعي العام في الدماغ (الفص الصدغي).

☆☆☆☆☆

في العين الواحدة حوالي ١٤٠ مليون مستقبل للضوء وهي ماتسمى بالمخاريط والعصي، يبلغ عدد المخاريط في كل عين ٧ ملايين وعدد العصبيات ١٣٠ مليون، مهمة الأولى للضوء المركز والألوان،والثانية للضوء الضعيف والعادي، هذه المخاريط والعصى تمثل شبكية الإستقبال في العين، والشبكية هذه هي نصف كرة ترقد في قاع العين وتُرى بفضل منظار القمر بشكل جميل للغاية، ويغلف الشبكية كرتان الأولى غزيرة بالتروية الدموية، والثانية طبقة صلبة حامية، ويتحكم في حركات العين ستة عضلات، ويشرف على التوازن الدماغ والمخيخ والبصلة السيسائية، ويخرج من العين وكمحصلة لعمل الشبكية نصف مليون ليف عصبي ينقل الصورة بشكل ملون.

بقي أن نقول أن الشبكية هي عشر طبقات وطبقة المخاريط والعصبي هي واحدة فقط وفي أعمق مكان.

العين المصابة بعمى الألوان قد تكون مصابة بعمى ألوان جزئي أو كلي ففي حالة العمى الجزئي تميز العين لونين أولين فقط من الألوان الثلاثة مع مشتقاتها، فقد ترى الأحمر والأزرق أو الأخضر، وبنسبة بسيطة قد ترى الأحمر والأخضر، أما في حالة عمىٰ الألوان الكلي فالعين لا تميز ألوانًا بل ترى جميع المرئيات على اختلاف ألوانها ذات لون رصاصي غامق، تماما كما ترى الأشياء في الظلام.

☆☆☆☆☆

التفكر فيمن فقد الحواس

ثم تأمل حال من عُدِم البصر ومايناله من الخلل في أموره فإنه لايعرف موضع قدمه ولايبصر مابين يديه ولايفرِّق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولايتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولايتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله هذا مع أنه لايشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولابحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولابعدو يهوى نحوه ليقتله ولايتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على عظم ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة. ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدسًا. وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولايُظن أنه مغموم حزين متأسف. هذا حكم من ولد أعمى فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ماألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره فهذا له حكم آخر.

وكذلك من عُدِم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويُعْدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤونة على الناس في خطابه ويتبرمون به ولايسمع شيئًا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم كغائب وحي كميت وقريب كبعيد.

وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالا لأموره: الضرير أو الأطرش؟ وذكروا في ذلك وجوهًا وهذا مبني على أصل آخر وهو أي الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر؟ وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب[1] وذكرنا أقوال الناس وأداتهم والتحقيق في ذلك فأي الصفتين كانت

---

(١) يقصد كتاب (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة).

أكمل فالضرر بعدها أقوى. والذي يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضرراً وأسلمهما ديناً وأحمدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضررًا في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة فإنه إذا عُدِم السمع عُدِم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم مايكُفُّه عنها فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء وقلَّ أن يبتلي الله أولياءه بالطرش ويبتلي كثيرًا منهم بالعمى. فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة،فمضرة الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه.

نعمة البيان والارادة

وأما من عُدِم البيانين بيان القلب وبيان اللسان فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمية بل هي أحسن حالاً منه فإنَّ فيها ماخُلقت له من المنافع والمصالح التي تُستعمل فيها وهذا يجهل كثيرًا مما تهتدي إليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكف البهائم أنفسها عنه،وأنَّ عدَمُ بيان اللسان دون بيان القلب،ومن عُدِم خاصة الإنسان وهي النطق اشتدت المؤونة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذي يرى ماهو محتاج إليه ولاتمتد إليه يده ولارجله.فكم لله على عبده من نعمة سابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه؟فهو لايلتفت إليها ولايشكر الله عليها،ولو فقد شيئًا منها لتمنى أنه له بدنياه وما عليها فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عارٍ من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبى المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن.قال تعالى:

﴿إن الإنسان لظلوم كفور﴾.

تعدد الأعضاء

ثم تأمَّل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما

في ذلك من الحكم البالغة، فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منهما واحداً فقط، إذ لا مصلحة في كونه أكثر من ذلك، ألا ترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخـر لأثقلا بدنه من غير حاجة إليه. لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد ثم إن الإنسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقي الآخر معطلاً لاأرب فيه وإن تكلّم وأبصر وسمع بهما معًا كلامًا واحداً وسمعًا واحدًا وبصرًا واحدًا كان الآخر فضلة لافائدة فيه وإن اختلف إدراكهـما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته. وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد فإن تكلم بهما كلامًا واحدًا كان أحدهما ضائعًا وإن تكلم بأحـدهـا دون الآخر فكذلك، وإن تكلم بهما معًا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأي الكلامين يأخذ، وكذلك لو كان له فمّان لكان مع قبح الخلقة أحـدهما فضلة لامنفعة فيه وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينة والجمال والزينة عليها بادية، فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان.وأما اليدان والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضروري للإنسان لاتتم مصلحته إلا بذلك، ألا ترى من قطعت إحدى يديه أو رجليه كيف تبقى حاله وعجزه؟ فلو أن النجار والخياط والحداد والخباز والبناء وأصحاب الصنائع التي لاتتأتى إلا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته، فاقتضت الحكمة أن أُعْطِي من هذا الضرب من الجوارح والأعضاء اثنين اثنين، وكذلك أعطى شفتين لأنه لاتكمل مصلحته إلا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك. وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب أنفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التي هي مجمـع القـدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين وكذلك أجفان العينين فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم، فاقتضت الحكمة البالغة أن جُعلت الأعضاء على ماهي عليه من العدد والشكل والهيئة فلو زادت أو نقصت لكان نقصاً في الخلقة ولهذا يوجد في النوع الإنساني من زائد في الخلقة وناقص منها مايدل على حكمة

الرب تعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وأنه خلق سويًا معتدلاً لم يزدد في خلقه مالا يحتاج إليه ولم ينقص منه مايحتاج إليه كما يراه في غيره فهو أجدر إن لم يزدد شكرًا وحمدًا لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأنه يخلق مايشاء.

تشابه الحيوان وعدم تشابه الانسان

من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل في النوع الإنساني بين صورهم؟ فقلَّ أن يُرى اثنان متشابهان من كل وجه وذلك من أندر مافي العالم بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطير وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الظباء والثلة من الغنم والذود من الإبل والصوار من البقر تتشابه حتى لايفرق بين واحد منها وبين الآخر إلا بعد طول تأمُّل أو بعلامة ظاهرة، والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقة واحدة بل ولاصوت واحد وحنجرة واحدة والحكمة البالغة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعينهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات، فلولا الفرق والاختلاف في الصور لفسدت أحوالهم وتشتت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولاالبائع من المشتري ولاكان الرجل يعرف عُرسه من غيرها للاختلاط ولاهي تعرف بعلها من غيره، وفي ذلك أعظم الفساد والخلل، فمن الذي ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرَّق بينها بفروق لاتنالها العبارة ولايدركها الوصف؟ فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق في النوع وأين قول الطبائعيين إن فعلها متشابه لأنها واحدة في نفسها لاتفعل بإرادة ولامشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وربما وقع في النوع الإنساني تشابه بين اثنين لايكاد يميز بينهما فتعظم عليهم المؤونة في معاملتهما وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق وإذا كان هذا يعرض في التشابه في الأسماء كثيرًا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى فما الظن لو وضع التشابه في الخلقة والصورة؟. ولما كان

الحيوان البهيم والطير والوحوش لايضرها هذا التشابه شيئًا لم تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها. فتبارك الله أحسن الخالقين الذي وسعت حكمته كل شيء.

الصوت وآلات الكلام

ثم تأمَّل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته، والكلام وانتظامه، والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها، تجد الحكمة الباهرة في هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك في أنبوبة الحنجرة حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان، فيحدث له هناك مقاطع ونهايات وأجراس يسمح له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجري في قصبة واحدة حتى ينتهي إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفًا يدور عليها الكلام كله أمره، ونهيه، وخبره، واستخباره، ونظمه، ونثره، وخطبه، ومواعظه، وفضوله، فمنه المضحك، ومنه المبكي، ومنه المؤيس، ومنه المطمع، ومنه المخوف، ومنه المرجي والمسلي، والمحزن والقابض للنفس والجوارح والمنشط لها، والذي يسقم الصحيح، ويبريء السقيم، ومنه مايزيل النعم ويحل النقم، ومنه مايستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء، وتستمال به القلوب ويؤلف به بين المتباغضين ويوالي به بين المتعاديين، ومنه ماهو بضد ذلك، ومنه الكلمة التي لايلقى لها صاحبها بالاً يهوى بها في النار أبعد مابين المشرق والمغرب، والكلمة التي لايلقى لها بالاً صاحبها يركض بها في أعلا عليين في جوار رب العالمين.

فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لايُدرىٰ مايراد به ولاأين ينتهي ولاأين مستقره.

هذا إلى مافي ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التي لايحصيها إلا الله فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته فتسمع لغات مختلفة، كلامًا منتظمًا مؤلفًا ولايدري كل منهم مايقول الآخر واللسان الذي هو جارحة واحد في الشكل والمنظر وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام

اللسان وتوزيع مناطق الاحساس بالطعم

ثلاثة أزواج من الغدد اللعابية تجعل من الطعام الذي نأكله مستساغاً سهل البلع والهضم

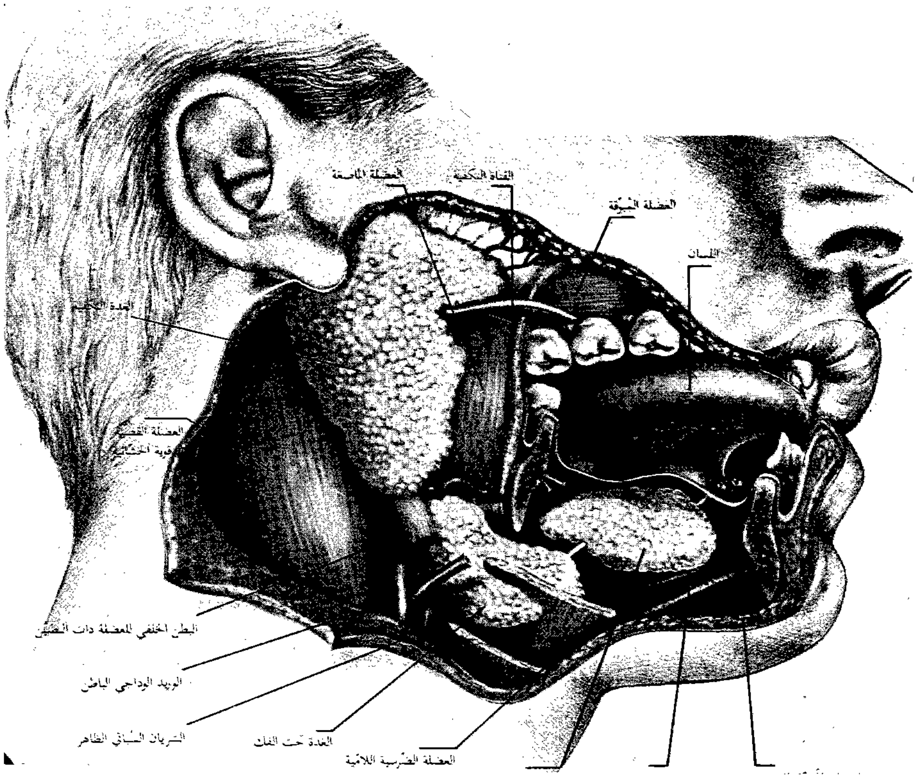

مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية في ذلك كالآية في الأرض التي تسقى بماء واحد وتخرج مع ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة، ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أن في كل منهما آيات فقال:

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾.

وقال تعالى:

﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد﴾. الآية.

فانظر الآن في الحنجرة كيف هي كالأنبوب لخروج الصوت، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التي تخرج منها ومن اللسان، ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء والكلام، ومن عرضت له آفة في حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية. وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار والرئة بالزق الذي ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التي تقبض على الزق حتى يخرج الهواء في القصب والشفتين والأسنان التي تصوغ الصوت حروفًا ونغمًا بالأصابع التي تختلف على المزمار فتصوغه ألحانًا والمقاطع التي ينتهي إليها الصوت بالأبخاش التي في القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذات من الإنسان، فإذا تعجبت من الصناعة التي تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التي أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويابعد مابينهما ولكن المألوف المعتاد لايقع عند النفوس موقع التعجب فإذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلاً إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ماهو أعظم من ذلك مما لايدركه القياس. ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاة والأسنان فمن الذي ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم.

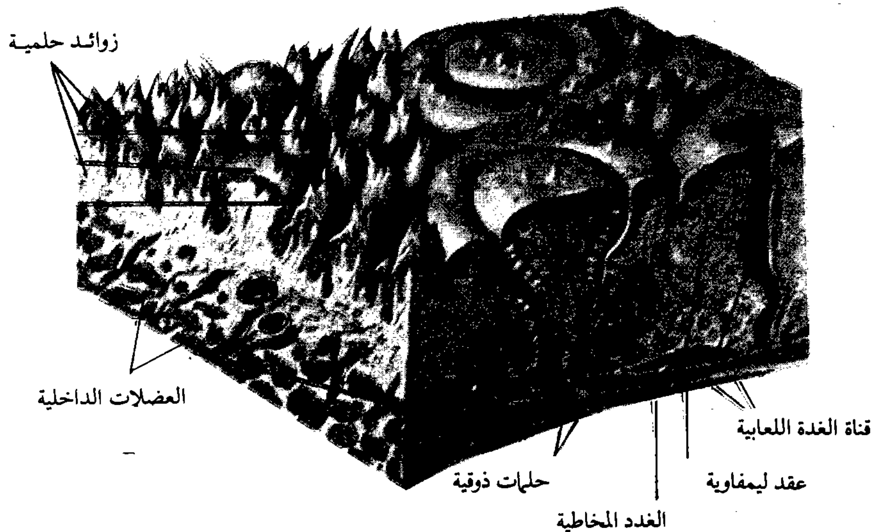

مقطع من اللسان مكبر مئات المرات

يقوم اللسان بالمضغ والبلع وذوق الطعام والتصويت، فيه ١٧ عضلة تحركه إلى كافة الجهات وثلاثة أعصاب لتنظيم نقل الحس، وعلى سطح اللسان يوجد ٩٠٠٠ نتوء ذوقي لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والمالح، وأن حركة اللسان في أي اتجـاه ينتج حرفًا معينًا وبذلك يستطيع الإنسان أن ينطق بفصاحة، وأثناء المضغ والبلع تفرز ستة غدد بفوهاتٍ ستة اللعاب-إلى الفم لتطرية الطعام وتهيئته المبدئية بالاشتراك مع ٣٦ جهازًا قاطعًا وطاحنًا وهي الأسنان.

فوائد أخرى:

وفي هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام، ففي الحنجرة مسلك النسيم البارد الذي يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع،وفي اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها،وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه في الحلق، وفي الأسنان من المنافع ماهو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم، وفيها إسناد الشفتين وإمساكهما عن الاسترخاء وتشويه الصورة ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخي شفتاه وفي الشفتين منافع عديدة، يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذي إليه ينتهي مايخرج من الجوف ومنه يبتدي مايلج فيه فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء، وهما أيضًا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك وانظر إلى من سقطت شفتاه ماأشوه منظره وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة في أعمال شتى.

أجهزة الرأس

ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجاب وتكشّف لك عن تركيب يحارُ فيه العقل، قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الإضطراب، ثم أُطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التي تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التي على رأس المحارب، ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات، ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترًا من الحر والبرد والأذى وجمالاً وزينة له. فسل المعطل من الذي حصَّن الدماغ هذا التحصين وقدَّره هذا التقدير وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ماأودعه ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانة وجعلها معدن الحواس والإدراكات؟ ومن الذي جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأشفار كالأشراج

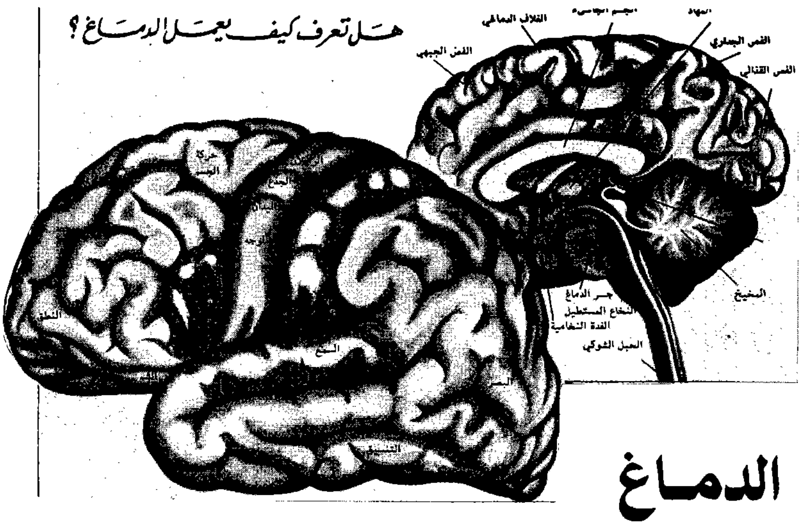

الدماغ

في الدماغ ١٣ مليار خلية عصبية و١٠٠ مليار خلية دبقية استنادية تشكل سدًا ماردًا لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة، والأورام تنمو خاصة على حساب الخلايا الدبقية، وكأن الخلايا العصبية مستعصية على السرطان، يتغذى الدماغ من الغلوكوز كمادة سكرية وفقط بخلاف القلب الذي يتغذى من سكر الغلوكوز أو حمض اللبن، فالسكر هو الحلوى الفاخرة التي يفضلها الدماغ بخلاف بقية أجهزة البدن، وإذا وقع البدن في أزمة فإن الدماغ يبقى العضو النبيل الذي يفضل على غيره في العطاء.

ويحتاج الدماغ يوميًا إلى ١١٥ غرام من الغلوكوز وكمية من الفوسفات و١٠ ـ ١٥٪ من الأكسجين الذي يحتاجه الجسم. ولكميةٍ من الدم لاتقل عن ١٠٠٠ لتر فإذا نقصت هذه المواد تقاعس الدماغ عن القيام بعمله الحيوي.

وتعتبر الخلايا الدماغية من أنبل الأعضاء لأنها تمثل حكومة البدن العاقلة العالمة المخلصة وباقي الجسم الشعب المتفاني في الطاعة والولاء، ولذا فإن الدماغ مغلف بثلاثة أغلفة فضلاً عن التصفيح العظمى بحيث يعتبر الرأس كصندوق محكم الإغلاق وبين الأغلفة يتسرب سائل خاص هو السائل الدماغي الشوكي الذي يقوم بفعل ماص للصدمات، وهذا الإتقان المحكم جعل علماء الفضاء يصممون نفس الطريقة لحماية القمرة الصناعية بإيجاد الغلافات والسائل على نفس الطريقة.

والحبل الشوكي قطره حوالي ١سم وطوله حوالي ٤٥ سم يتفرع منه ٣١ زوجًا من الأعصاب.

ويوجد في الإنسان حوالي ٨٠٠,٠٠٠ خلية عصبية في القرن الأمامي للحبل الشوكي وينتج شلل الأطفال إذا أصاب التدمير الثلثين فأكثر. وتعتبر القرون الأمامية في النخاع مسؤولة عن تحريك العضلات في حين تعتبر المراكز الخلفية مسئولة عن نقل كافة أنماط الحس (الألم، الحرارة، البرودة، الضغط، اللمس، الحس، العميق.... إلخ).

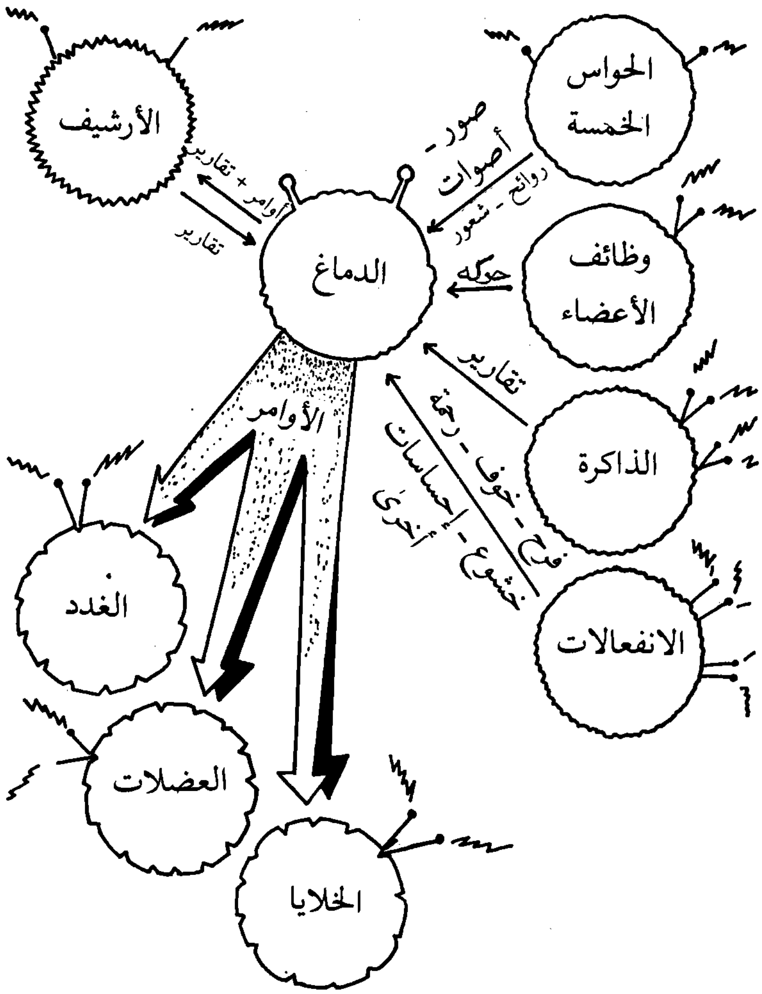

الدماغ مركز الادارة العامة

إن عدد خلايا الدماغ التقريبي هو١٣ مليار خلية، وبعض الخلايا العصبية المنتشرة في الجسم تتصل بما يقارب بـ١٨٠٠ خلية أخرى. الأمر الذي يمكّنها من إعلام الدماغ بالسرعة الهائلة بإعطاء التقارير المفصَّلة عن كل خلية في الجسم.

والأهداب كالرفوف عليها إذا فتحت؟ ومن الذي ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعًا وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة فلو اختلت طبقـة منهـا لاختل البصر؟ ومن شقهما في الوجه أحسن شق وأعطاهما أحسن شكـل وأودع المـلاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطليعةً وحارسًا للبدن ورائدًا يرسله كالجند في مهمّاته فلا يتعب ولايعيا على كثرة ظعنه وطول سفره؟ ومن أودع النور الباصر فيه في قدر جُرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمـر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات وجعلهما في أعلا الـوجـه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيئة للبدن؟ ومن حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسي المملكة وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له فهي مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته فلا تستطيع منه خلاصًا ولاخروجًا عن أمره فمنها رسوله ومنها بريده ومنها ترجمانه ومنها أعوانه وكل منهما على عمل لايتعداه ولايتصرف في غير عمله حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لاتفتر فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعسـاكر في خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته فرأيت له شأنًا عجيباً، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لايحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار.قال تعالى:

﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

فدعا عباده إلى التفكر في أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب ولأطلنا النفس إلى هذه الغاية ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعـة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانًا فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عبيد ولايشعر به ولله ماخلق له وهيأ له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب فإما على السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم فلو عقل هذا السلطان ماهيأ له لضن بملكه ولسعى في الملك الذي لاينقطع ولايبيد؛ ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

تساؤلات في النفس

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

* ومن جعل في الحلق منفذين؟ أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة والآخر للطعام والشراب وهو المريء الواصل إلى المعدة، وجعل بينهما حاجزًا يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر، فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان.

* ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لاتني ولاتفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك؟

* ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجًا تقبضها لكيلا تجري جريًا دائمًا فتفسِدَ على الإنسان عيشه ويمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضًا؟

* ومن جعل المعدة كأشد مايكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها فلو كانت لحمًا غضًا لانطبخت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولاتنهكها النار التي تحتها؟

* ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة؟

* ومن حصن المخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولاتذوب؟

* ومن جعل الدم السيال محبوسًا محصورًا في العروق بمنزلة الماء في الوعاء لِيُضْبَطَ فلا يجري؟

* ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات؟

* ومن جعل داخل الأذن مستوياً كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد انكسرت حِدَّةُ الهواء فلا ينكؤه على الهوام النفوذ إليه قبل أن يمسك وليمسك ماعساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم؟

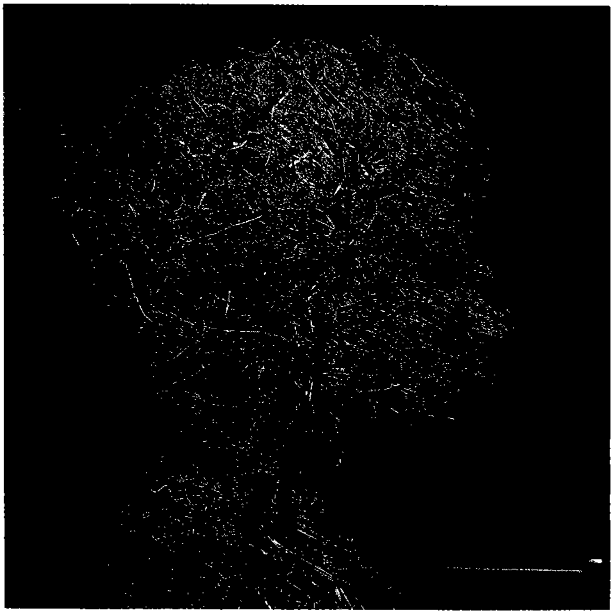

صورة العروق
التي تغذي
رأس الإنسان
والجزء الأعلى
من جسمه
فسبحان من
خلق الإنسان
من العدم
وهو قادر على
إعادته كما كان.

والدم الذاهب إلى الدماغ يعود إلى القلب في ٨ ثوانٍ، بينما يعود الدم الذاهب إلى أصابع القدم في ١٨ ثانية.

إذا افترضنا أن القلب لم يضطر إلى زيادة سرعة ضرباته عن الطبيعي فإن الكرية الحمراء تمر في الدورة ١٥٠٠ مرة في المتوسط على مدى يوم كامل (حمَّال يحمل يوميًا ١٥٠٠ مرة بدون تعب)!!..

وفي الدم ٥ ملايين كرية حمراء في كل ملمتر مكعب واحد من الدم أي تبلغ في مجموع الدم العام حوالي ٢٥ مليون مليون كرية حمراء، وتفرش سطحاً مقداره ٣٤٥٠متر مربع، وإذا صفت كريات حمر بدن واحد بجانب بعضها البعض، فإن مجموع أقطار الكريات (قطر الكرية الواحدة في المتوسط ٧مكرون) ينشيء طولاً يغلف الكرة الأرضية ٦ ـ ٧ مرات، مع العلم أن طاقة النقي في صناعة الكريات الحمر يمكن أن يتضاعف إلى ٥ ـ ٦ مرات، وتعيش الكرية وسطيًا ١٢٠ يومًا، ويمكن أن ينقص عمر الكرية حتى ٢٠ يومًا بدون ظهور دلائل فقر الدم، وتمشي الكرية الحمراء في رحلتها لنقل الأكسجين ١١٥٠ كم في عروق البدن، وفي الكرية الواحدة يكمن مركب الخضاب المعقد الذي يحوي ٥٧٤ حمضًا آمينيًا بالإضافة إلى الشحم والسكاكر والخمائر والفيتامينات... وفي نقص الأكسجين يرتفع عدد الكريات الحمر إلى ٧ ـ ٨ مليون/ ملم مكعب/ خاصة في الارتفاعات وفي الأجنة باعتبار أن الرئة لاتعمل، مما دعا إلى القول بأن الجنين الإنساني يجلس على قمة افرست!!.

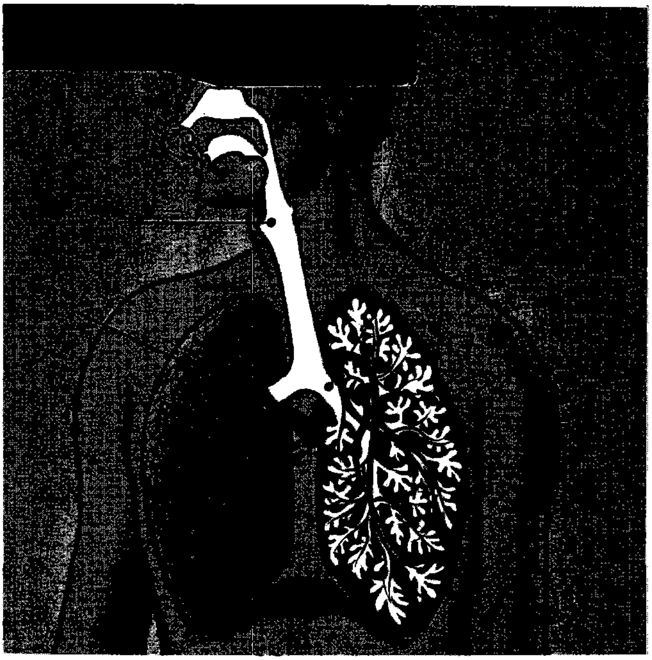

الجهاز التنفسي للانســان بأبسط صورة

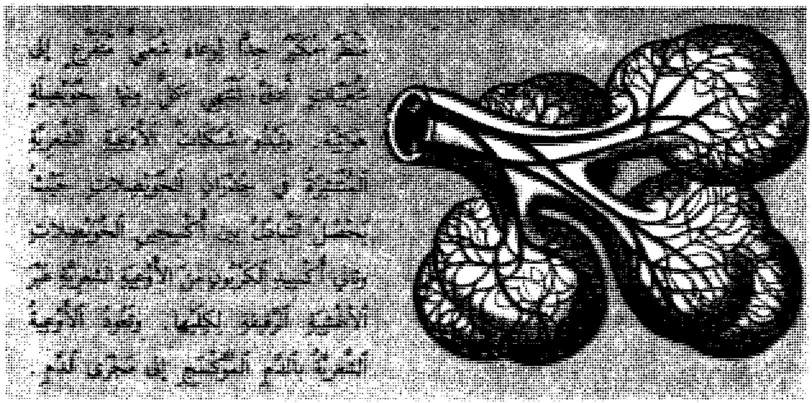

الشعيبات الهوائية

في كل يوم يتنفس الإنسان ٢٥ ألف مرة (٢٥٠٠٠) يسحب فيها ١٨٠متراً مكعبًا من الهواء يتسرب منها ٦,٥ متر مكعب من الأكسجين إلى الدم .

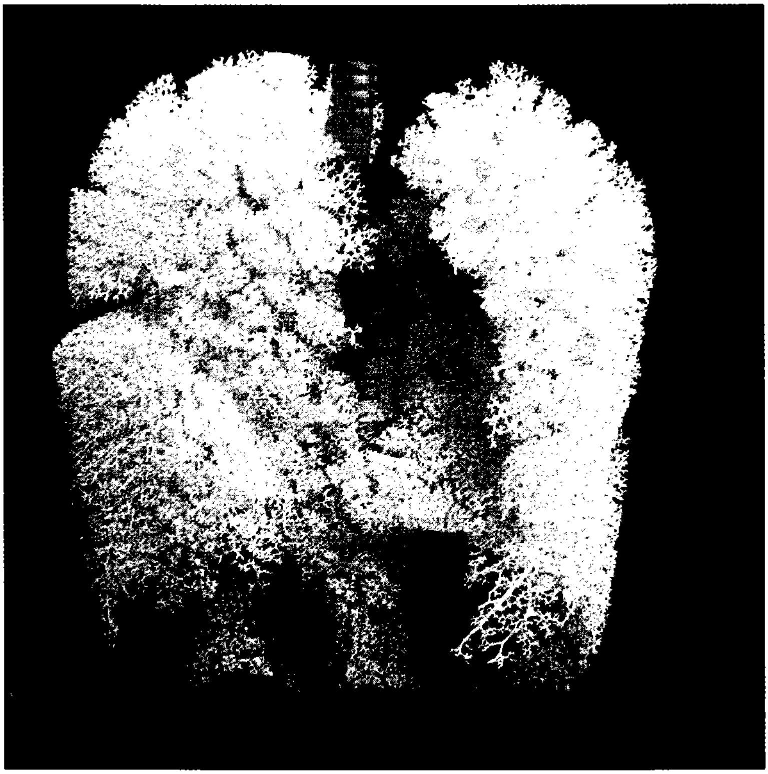

العروق والأوردة

* العروق التي تغذي الرئتين وكذلك الأوردة التي تعود بثاني أكسيد الكربون إلى الرئتين ليطرد خارج الجسم.
* لاحظ الانبعاج الذي في المنتصف (جهة الرئة اليسري)، إنه مكان القلب الذي تحتضنه الرئتان ويتصل بهما عن طريق الدورة الدموية الصغرى.
* إن الرغامي عند الإنسان تتفرغ إلى قصبات وقصيبات حتى تصل إلى مستوى الأسناخ، ويبلغ عدد الأسناخ في الرئتين حوالي (٧٥٠) مليون سنخ رئوي، وكل سنخ يتمتع بغلاف رقيق ويتصل بجدار عرق دموي صغير وهكذا يتم تصفية الدم بسحب غاز الفحم ومنح الأكسجين اللازم للبدن.
* إن شبكة الأسناخ تفرش مساحة تصل إلى مايزيد على (٢٠٠) متر مربع لتصفية الدم وفي الحال الطبيعية لايستخدم أكثر من عشر هذه الأسناخ، وفي الأزمات تنفتح مزيد من الأسناخ.

* ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقيها من الأرض فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل؟

* ومن جعل ماء العينين ملحًا يحفظها من الذوبان وماء الأذن مرًا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض وماء الفم عذبًا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها؟

* ومن جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلي في أستر موضع في الدار وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزًا في خلفه ولا ناشزًا بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقي عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريًا فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض؟

* ومن جعل الأسنان حدادًا لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضًا لرضه وطحنه؟

* ومن سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الآدمي لأنها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ماشاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين إما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وإما مقاساة الألم والوجع عند أخذها؟

والحكمة لايجب أن تكون بأسرها معلومة لبشر ولا أكثرها بل لانسبة لما علموه إلى ماجهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى خلقه و إلى ماخفي عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر، وحَسْبُ الفطِنِ اللبيبِ أن يستدل بما عرف منها على مالم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق، ومامثل هؤلاء الحمقى النوكى إلا كمثل رجل لاعلم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم فخفيت عليه فجعل كلما خفي عليه منها شيء قال هذا لافائدة فيه وأي حكمة تقتضيه هذا، مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم ويفوقهم فيها. فما

الظن بمن بهرت حكمته العقول الذي لايشاركه مشارك في حكمته كما لايشاركه في خلقه فلا شريك له بوجه.فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عياراً عليها فما أدركه أقربه ومالم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين ولله في كل ماخفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لاتدفع ولاتنكر.

فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة مااقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها.ألا ترى أن العشب ينبت في مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة؟ ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن وهي أقبل لنبات الشعر وأهيأ فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج البدن فصارت شعرًا ولو حبست في داخل البدن لأضرته وآذت باطنه فخروجها عين مصلحة الحيوان واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكمالها ولهذا يكون احتباسه لفسادٍ في الطبيعة ونقصٍ فيها. ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب فإذا شاهدت ذلك في الشعر الذي عرفت بعض حكمته فمالك لاتعتبره في الشعر الذي خفيت عليك حكمته؟ .

ومن جعل الريق يجري دائمًا إلى الفم لاينقطع عنه ليبل الحلق واللهوات ويسهل الكلام ويسيغ الطعام. قال إبقراط: الرطوبة في الفم مطية الغذاء تأمل حالك عندما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذا العين التي لايستغنى عنه.

آلام الأطفال

ثم تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال ومالهم فيه من المنفعة فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا: في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثًا عظيمة، فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح. وأيضًا فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجاري النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوي الأعصاب، وكم للطفل من منفعة

ومصلحة فيها تسمعه من بكائه وصراخه . فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذي سببه ورود الألم المؤذي وأنت لاتعرفها ولاتكاد تخطر ببالك.فهكذا إيلام الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفى على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام في حكمه اضطراب الأرشية وسلكوا في هذا الباب مسالك....

فقالت طائفة :

ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة.وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة،وكلما سئلوا عن شيء أجابوا بلا يسأل عما يفعل وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها وإنما المراد بالآية إفراده لكمال حكمته لامعقب لحكمه ولايعترض عليه بالسؤال لأنه لايفعل شيئًا سدى ولاخلق شيئًا عبثًا وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولافائدة ألا ترى إلى قوله :

﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون.لايسأل عما يفعل وهم يسئلون﴾ .

كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله-لايسأل عما يفعل-إثبات لحقيقة إلاهيته وإفرادٌ له بالربوبية والإلهية وقوله وهم يسألون في صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة فكيف يسوي بينها وبينه مع أعظم الفرقان لهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلاً في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغايتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب .

وقالت طائفة:

الحكمة في ابتلائهم تعويضهم في الآخرة بالثواب التام فقيل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام فأجابوا بأن توسط الإيلام في حقهم كتوسط التكاليف في حق المكلفين فقيل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلام أطفال الكفار فأجابوا بأنّا لانقول أنهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لايدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لاذنب لهم وكذا الكلام معهم في مسألة الأطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فأورد عليهم مالاجواب لهم عنه وهو إيلام

أطفالهم الذين قُدِّرَ بلوغهم وموتهم على الكفر فإن هذا لاتعويض فيه قطعًا ولاهو عقوبة على الكفر فإن العقوبة لاتكون سلفًا وتعجيلًا فحاوروا في هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل.

وقالت طائفة ثالثة :

هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه إلزام مالا يلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكًا عنها فهي كالحرِّ والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز، فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع والحاجة إلى الشرب عند الظمأ وإلى النوم والراحة عند التعب فإن هذه الآلام هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لاينفك عنها الإنسان ولا الحيوان فلو تجرد عنها لم يكن إنسانًا بل كان ملكًا أو خلقًا آخر وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم،وكم بين مايقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة فلو لم يخلق كذلك لكان خلقًا آخر،فيرى أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمحتن به الكبير فإيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحر دون ذلك أو فوقه، وماخلق الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة.

أسباب الابتلاء

قالوا: فإن سأل سائل وقال: فلم خلق كذلك؟ وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم؟ فهذا سؤال فاسد فإنَّ الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهي عرضة للآفات وركبه تركيبًا معرضًا للأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط الأربعة التي لاقوام له إلا بها ولايكون إلا عليها وهي لامحالة توجب امتزاجًا واختلاطًا وتفاعلًا يبغي بعضها على بعض بكيفيته تارة وبكميته تارة وذلك موجب للآلام قطعًا ووجود الملزوم بدون لازمه محال، ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة مايوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب مايصلحه

ودفـع مايضره بنفسـه تارة، وبمن يعينـه تارة فأحوج النوع بعضه إلى بعض، فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض، فحدث من ذلك الآلام والشرور بنحو مايحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض والآلام لاتختلف عن هذا الامتزاج أبدًا إلا في دار البقاء والنعيم المقيم لافي دار الابتلاء والامتحان،فمن ظن أن الحكمة في أن تجعل خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن باطلاً بل الحكمة التامة البالغة اقتضت أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتهـا ببلائها وراحتها بعنائها ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض،كما قال القائل: أصبحت في دار بليات أدفع آفات بآفات.

ولقد صدق فإنك إذا فكرت في الأكل.والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر مايستلذ به رأيته يدفع بها ماقابله من الآلام والبليات، أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع، وبالشرب ألم العطش، وباللباس ألم الحر والبرد، وكذا سائرها. ومن هنا قال بعض العقلاء إن لذاتها لنا هي دفع الآلام لاغير فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وأن الحكمة التي اقتضت ذلك هي أولى باقتضاء دارين، دار خالصة للذات لايشوبها ألم ما، ودار خالصة للآلام لايشوبها لذة ما والدار الأولى الجنـة والدار الثانية النار، أفلا ترى كيف ذلك مع ماأنت مجبول عليه في هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ورأيت شواهدهما وأدلة وجودهما من نفسك حتى كأنك تعاينها عيانًا، وانظر كيف دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار. فتأمل كيف قاد النظر في حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسلهم وماأخبروا به تفصيلاً يدل عليه العقل مجملاً فأين هذا من مقام من أدّاه علمه إلى المعارضة بين ماجاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته؟ ولكن تلك العقول كادها باريها ووكلها إلى أنفسها فحلت بها عساكر الخذلان من كل جانب وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا لعلك لاتظفر بها في أكثر الكتب.

القوى الدافعة في أجهزة الجسم

فارجع الآن إلى نفسك وفكِّر في هذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان ومافيها من الحكمة والمنفعة وماجعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي[1] الـذي يقتضيه ويستحثـه فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته، والكرى يقتضي النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والأعضاء وإجمام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة، والشبق يقتضي الجماع الذي به

---

(١) عبّر ابن القيم رحمه الله بـ وجود الداعي والمستحثات في الجسم، وقد كشف العلم الحديث الستار عن بعضها ولكنه مازال حائرًا أمام أكثرها حيث يقول في تفصيله عن مايسمى بـ جهاز الغدد والهرمونات: لدى الجسم عدة أجهزة لضبط وظائفه المختلفة. كل من هذه الأجهزة يقوم بدوره في تنظيم أعضاء الجسم وعملهـا وتنبيه الجسم إلى الأخـطار المحيطة به وحمـايتـه منهـا. والأعصاب تشكل الجهاز الأهم من بين هذه الأجهزة والغدد تشكل الجهاز الثاني من حيث الأهمية الغدد هي أشباه معامل صغيرة تضع المواد الكيميائية التي تفرزها في الجسم ومن بين هذه المواد، الهرمونات التي تدور في أنحاء الجسد داخل مجرى الدم.

وأهم الغدد في جسم الإنسان هي:

في الـرأس ـ الغـدد الـدمعية والغـدد اللعـابية والغدة الصنوبرية والغدة النخامية في العنق ـ الغدة النطيره الدرقية والغدة الدرقية.

في الصدر ـ الغدة الصعترية ولدى المرأة الغدة الثديية.

في البطن ـ الغدد الأدرينالية والكبد والبنكرياس والغدد المعوية ولدى المرأة المبيضان.

في العجز ـ لدى الرجل فقط الغدد الإحليلية والخصيتان.

ولكل من هذه الغدد وظيفة أو أكثر لكننا مازلنا حتى اليوم نجهل وظائف بعض هذه الغدد أو لانعلم كيف تعمل ولاماهو تأثيرها في الجسم.

دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة، فتجد هذه الدواعي تستحث الإنسان لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير اختياره، وذلك عين الحكمة فإنه لو كان الإنسان إنما يدعي هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعزوه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لايشعر، كما إذا احتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم تؤزه أزًا إلى مافيه قوامه وبقاؤه ومصلحته وترد عليه بغير اختياره لاستدعائه، فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه. ثم انظر مايعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأُعطي القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضي معلومها من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها، ثم أُعطي القوة الممسكة التي تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه، ثم أُعطي القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتهضمه عن المعدة، ثم أُعطي القوة الدافعة وهي التي تدفع ثفله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لذا يؤذيه وينهكه. فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها؟ ومن جعلها خادمًا لك؟ ومن أعطاها أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر؟ ومن ألَّف بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل واحد؟ ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضًا. فمن كان يحول بينه وبين ذلك؟ فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركًا لطلب الغذاء الذي به قوام البدن؟ ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب في الجوف حتى تهضمه المعدة؟ ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه؟ ولولا الدافعة كيف كان الثفل المؤذي القاتل لو انحبس أولا فأولا فيستريح البدن فيخف وينشط؟ فتأمل كيف وُكِلَتْ هذه القوة بك والقيام بمصالحك؟ فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه قد وكل بتلك الدار أقوامًا يقومون بمصالحها فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزنه إلى أن يهيأ ويصلح وبعضهم يقبضه فيهيؤه ويصلحه ويدفعه إلى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجاتهم وبعضهم لمسح الدار وتنظيفها وكنسها من المزابل والأقذار، فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدار أنت والحشم والخدم الأعضاء والجوارح عليها هذه القوى التي ذكرناها.

نظر المؤمن وغيره

فرق بين نظر الطبيب والطبائعي في هذه الأمور فنظرهما فيها مقصور على النظر في حفظ الصحة ودفع السقم فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خالقها وباريها وماله فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والآلاء التي دعا العباد إلى شكرها وذكرها.

الحفظ والنسيان

ثم تأمل حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان الذي خص به نوع الإنسان وماله فيهما من الحكم وماللعبد فيهما من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليه الخلل في أموره كلها ولم يعرف ماله وماعليه ولاماأخذ ولا ما أعطى ولا ما سمع ورأى ولا ما قال ولا ما قيل له ولاذكر من أحسن إليه ولا من أساء إليه ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه ولامن ضره فينأى عنه، ثم كان لايهتدي إلى الطريق الذي يسلكه أول مرة ولو سلكه مرارًا ولايعرف علمًا ولو درسه عمره ولاينتفع بتجربة ولايستطيع أن يعتبر شيئًا عليمًا مضى بل كان خليقًا أن ينسلخ من الإنسانية أصلاً. فتأمل عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلاً عن جميعهن. ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان، فإنه لولا النسيان لما سلا شيئاً، ولاانقضت له حسرة، ولاتعزى عن مصيبة، ولامات له حزن، ولابطل له حقد، ولاتمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات، ولارجا غفلة عدو، ولانقمة من حاسد. فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله في كل واحد منهما ضربًا من المصلحة.

الحيـاء

ثم تأمَّل هذا الـخُلُقْ الذي خُصَّ به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خُلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو

خاصة الإنسانية فمن لاحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة. كما أنه ليس معه من الخير شيء ولولا هذا الـخُلُق لم يُقرَ الضَّيف ولم يُوف بالوعد ولم تُؤد أمانة ولم يُقض لأحد حاجة ولاتحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه ولاستر له عورة ولاامتنع من فاحشة. وكثيرٌ من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق حقًا ولم يصل له رحمًا ولابر له والدًا فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الحق،وقد تبينّ أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها.

وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: «استحيوا من الله حق الحياء! قالوا وماحق الحياء؟ قال: أن تحفظ الرأس وماحوى، والبطن وماوعى، وتذكر المقابر والبلى».وقال ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ماشئت**». وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى:

﴿اعملوا ماشئتم﴾ وقوله: **﴿كلوا وتمتعوا قليلاً﴾**.

وقالت طائفة هو إذن وإباحة والمعنى إنك إذا أردت أن تفعل فعلاً فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله وإن كان ممالايستحيه منه فافعله فإنه ليس بقبيح.

وعندي أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر وهو في قوة قولهم من لايستحي صنع مايشتهي فليس بإذن ولاهو مجرد تهديد وإنما هو في معنى الخبر، والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء أما من لم يستح فإنه يصنع ماشاء وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكتة بديعة جدًا، وهي أن للإنسان آمرين وزاجرين، آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل مايشتهي وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ولابد فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال: من لايستحي صنع مايشتهي.

البيـان

ثم تأمَّل نعمة الله على الإنسان بالبيانين البيان النطقي والبيان الخطي وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمه على العبد فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان مالم يعلم﴾.

فتأمَّل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الـوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه، فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي، ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقـة وفي سائر المواضع يذكر ماهو سابق عليها أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار أو مادة الفرع وهو الماء المهين وذكر في هذا الموضع أول مباديء تعلق التخليق وهو العلقة فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة، ثم ذكر ثالثًا التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن وتخبطت الأحكام ولم يعرف الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظًا للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان، فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله إياه وزيادة في خلقه وفضله فهو الذي علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم فإنه علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم.

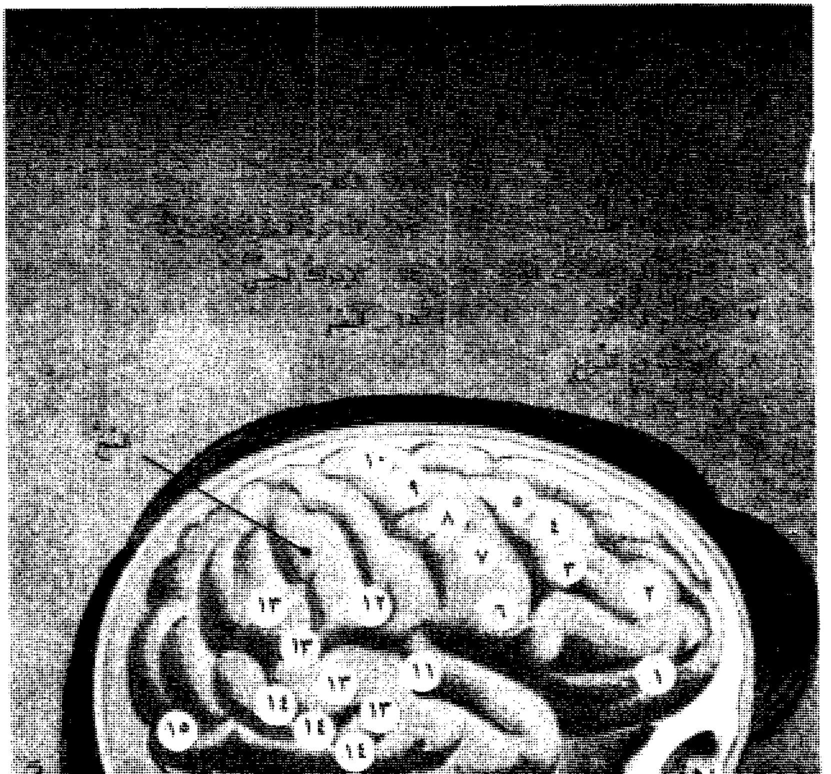
المخ وعلاقته
بالجهاز العصبي

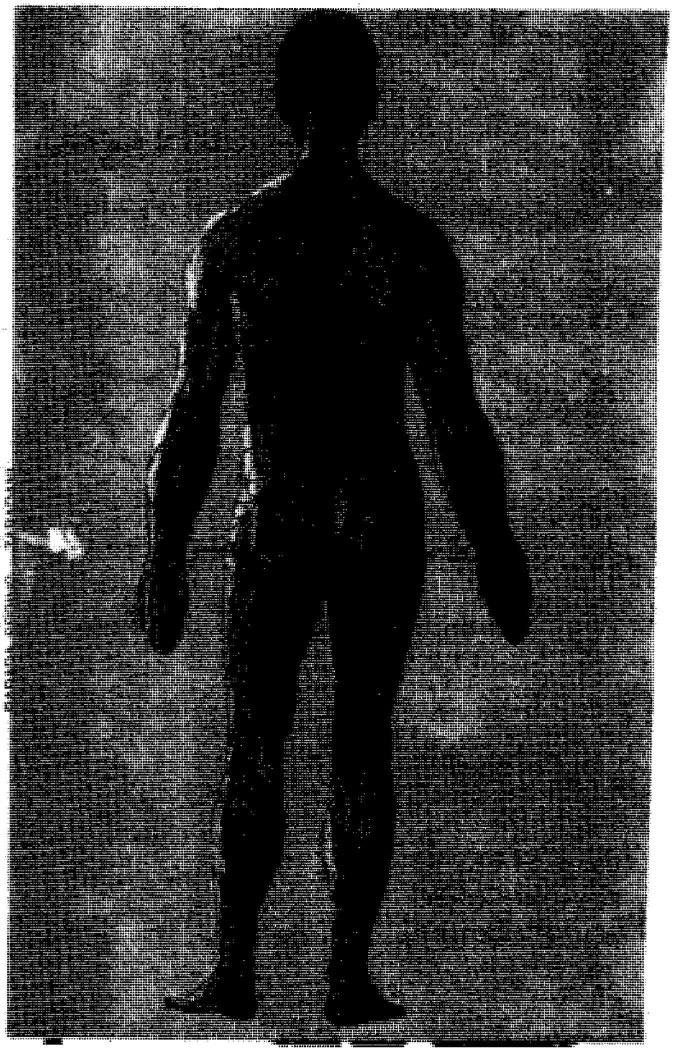

هذا ومن أعطاه القلب الذي يعي به واللسان الذي يترجم به والبنان الذي يخط به ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعلم بالقلم.

عنـد الكتابـة

قف وقفةً في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرَّك بها بنانك، حتى صارت نقشًا عجيبًا معناه أعجب من صورته فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسان ويقوم مقام رسولك ويجري عليك مالايجري من ترسله سوى من علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم. والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود اللّدني والوجود اللفظي والوجود الرسمي. فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب، ودل قوله: «خلق» على أنه يعطي الوجود العيني فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقًا وتعليمًا وذكر خلقين وتعليمين خلقًا عامًا وخلقًا خاصًا وتعليمًا خاصًا وتعليمًا عامًا وذكر من صفاته هاهنا إسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفًا ومنه كل خير فعلاً فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعته إلى ذلك وهو الغني الحميد. وقوله تعالى:

﴿الرحمن علَّم القرآن خلق الإنسان علَّمه البيان﴾.

دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها فقوله خلق الإنسان، إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق لما تقدم، وقوله علم القرآن، إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان

القرآن بتعليمه، كما أنه إنما صار إنسانًا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه ثم قال علمه البيان والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانًا، أحدها البيان الذهني يميز فيه بين المعلومات. والثاني البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره. والثالث البيان الرسمي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين للسامع معاني الألفاظ، فهذا بيان للعين وذلـك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيراً مايجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله:

﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾.

وقوله:

﴿والله أخـرجكم من بطون أمهـاتكم لاتعلمـون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾.

وذمَّ من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله:

﴿صم بكم عمي﴾.

وقوله:

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

وقد تقدم بسط هذا الكلام.

العـلم والجهـل

ثم تأمَّل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ومنع عنه علم مالا حاجة له به، فجهله به لايضر وعلمه به لاينتفع به انتفاعًا طائلاً،ثم يسَّر عليه طرق ماهو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة فليس في العلوم ماهو أجل منها ولاأظهر عند العقل والفطرة،وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولاأدل ولاأبين ولاأوضح، فكل ماتراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك وكل مايخطر ببالك وكل مانالته حاسة من حواسك فهو دليلك على الرب

تبارك وتعالى، فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجلى منها، وكل ماستدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ولهذا قالت الرسل لأممهم: «أفي الله شك؟» فخاطبوهم مخاطبة من لاينبغي أن يخطر له شك في وجود الله سبحانه.ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ولايطيق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى:

﴿وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾.

وقوله: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾.

وقوله: ﴿إنما أنت مذكِرٌ﴾.

وقوله: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾.

وهو كثير في القرآن ومفصلين لما في الفطرة والعقل والعلم به جملة، فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسله ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته مُودَعًا في الفِطرةِ مركوزًا فيها، فلو خُلِّيت على ماخلقت عليه لم يعرض لها مايفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ماأنكرت وجحدت ماجحدت، فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا طوعًا واختيارًا ومحبة وإذعانًا بما جعل من شواهد ذلك في قلوبهم، حتى إن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها، ومعذرين ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا تحتج على الله بأنه ماأرشدها ولاهداها فيحق القول عليها بإقامة الحجة فلا يكون سبحانه ظالمًا لها بتعذيبها وإشقائها، وقد بين ذلك سبحانه في قوله:

﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾.

فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مشيئته في الفطر ولم يكن ليعرف بها إنها

ثابتة في فطرته فلما ذكرته الرسل ونبهته رأى ماأخبروه به مستقرًا في فطرته شاهداً به عقله بل وجوارحه ولسان حاله وهذا أعظم مايكون من الإيمان وهو الذي كتبه سبحانه في قلوب أوليائه وخاصته فقال:

﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾.

فتدبر هذا الفصل فإنه من الكنوز في هذا الكتاب وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر ولله الحمد والمنة.

مراحل تطور خلق الإنسان في رحم الأم

نهاية الأسبوع الأول: حيث يتم الاتحاد بين نطفة الرجل ونطفة المرأة في قناة فالوب وتكوّن خلية واحدة قابلة للانقسام والتكاثر حيث تنقسم إلى خلايا عديدة وهي في طريقها إلى جدار الرحم حيث تنغرس هناك وتتعلق مثل ثمرة التـوت. قال تعالى: ﴿**ثم خلقنا النطفة علقة**﴾.

الأسبوع الأول
«العلقة».

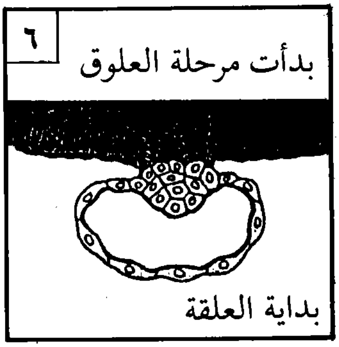

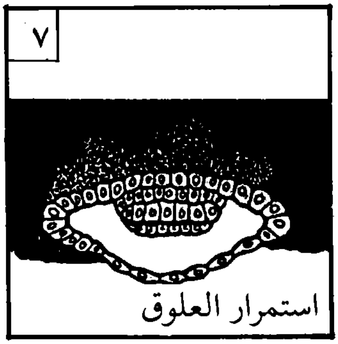

نهاية الأسبوع الثاني: ثمرة التوت هذه تنقسم خلاياها من الداخل إلى عدة أقسام لتكون ..

١ - الدورة الدموية للمشيمة.
٢ - اللوح الجنيني.
٣ - السائل الذي يسبح فيه الجنين.

قال تعـالى: ﴿**فخلقنـا العلقة مضغة**﴾.
(وكل هذه لاترىٰ بالعين المجردة الآن).

الأسبوع الثاني
«العلقة».

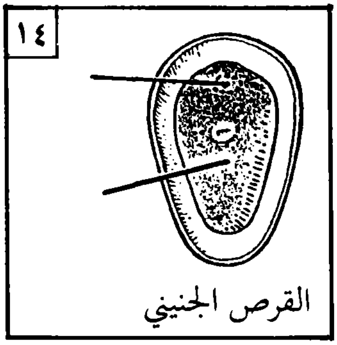

نهاية الأسبوع الثالث: اللوح الجنين ينقسم إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الخارجية (الاكتودرم) *حيث يخلق الله تعالى منها:*

(أ) ـ أعضاء سطحية . .

طبقة الجلد ـ الشعر ـ الجلد ـ الأظافر ـ الغدد الجلدية ـ الغدد الحليبية ـ الجزء الأمامي من الغدة الصنوبرية ـ جزء ال (ENAMEL) من الأسنان ـ الأذن الداخلية العدسات .

(ب) ـ أعضاء عصبية . .

العقد الجمجمية الحساسة والأعصاب ـ باطن الغدة الجاركلوية ـ الخلايا الملونة ـ غضاريف الأطراف ـ الجهاز العصبي المركزي ـ الشبكية ـ الجزء الخلفي للغدة الصنوبرية .

الطبقة الوسطى (الميزودرم) *حيث يخلق الله تعالى منها:*

الأنسجة الرابطة ـ عضلات الأعضاء الداخلية للجسم والأطراف ـ الغشاء الخارجي للرئة ـ غشاء القلب (التامور) ـ أغشية الأمعاء ـ خلايا الدم واللمف ـ الجهاز الدوري الدموي ـ الجهاز اللمفاوي ـ الطحال ـ الجزء الخارجي ـ للغدة الجاركلوية ـ الجهاز البولي التناسيلي ـ الأعضاء التناسلية والقنوات والغدد المساعدة ـ عضلات الجذع الهيكل العظيم ماعدا الجمجمة .

الطبقة الداخلية (**الاندودرم**) *حيث يخلق الله تعالىٰ منها :*

الطبقة الداخلية العمودية للقصبة الهوائية ـ الشعب الهوائية ـ الخلايا الداخلية للجهاز الهضمي ـ الكبد ـ البنكرياس ـ المثانة ـ الخلايا العمودية للحنجرة ـ الغدة الدرقية ـ التجويف الأذني الطبلي ـ الأنبوبة الموصلة بين الحنجرة والتجويف الأذني الطبلي ـ اللوزتين ـ الغدد الجاردرقية .

وفي نهاية هذا الأسبوع يكون المخ قد برز والحبل العصبي امتد والغدة الدرقية قد بدأت في التكوين وأنابيب القلب قد بدأت في الالتحام وظهرت نتوءات جانبية تسمىٰ القطع البدنية . (أنظر الصورة)

قال تعالى: ﴿**فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا**﴾ .

الأسبوع الثالث «المضغة» .

٢٠

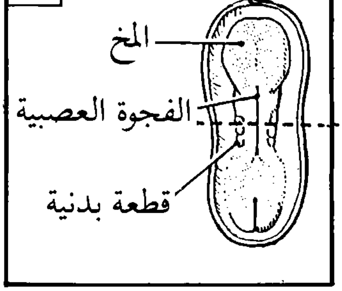

٢١

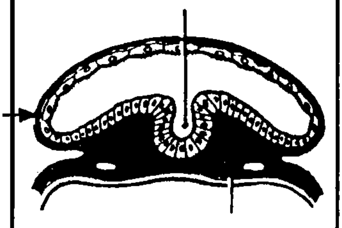

نهاية الأسبوع الرابع: يبدأ القلب يدق .
الثنايا العصبية تلتحم .
تظهر نتوءات العينين والأذنين
يظهر نتوءي الذراعين .
طول الجنين الآن ٤ ملم (حبة رز) .

الأسبوع الرابع «المضغة».

٢٢

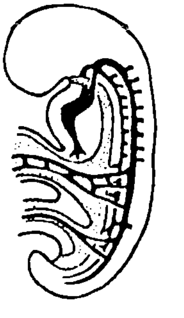

٢٣

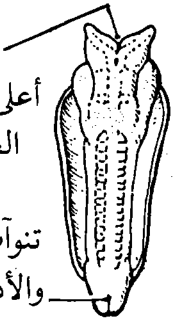

نهاية الأسبوع الرابع يبلغ
طول الجنين ٤ ,سم .

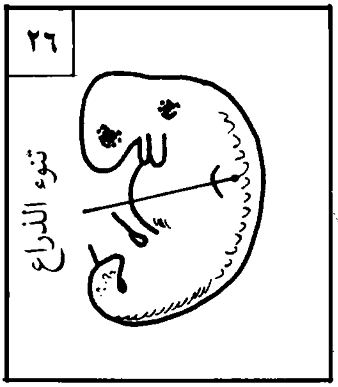

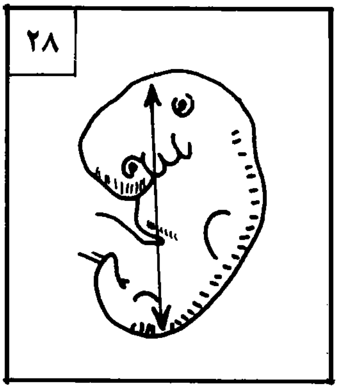

نهاية الأسبوع الخامس: تبدوا نقر العدسات للعين.

- يظهر تجويف العينين.
- وتظهر نقر الأذن.
- وتظهر نقر الأنف.
- وتبدوا معالم الفم.
- صفيحة الكفين قد ظهرت بدون أصابع.
- حجم الرأس يبدو أكبر من الجذع.
- وتكون أوعية المخ قد تكونت.
- نتوء الساقين قد ظهر.
- طول الجنين ٨ ملم «حبة الفصفص».

الأسبوع الخامس يبلغ
طول الجنين ٨ ,٠سم.

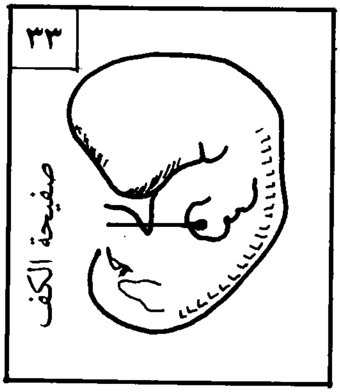

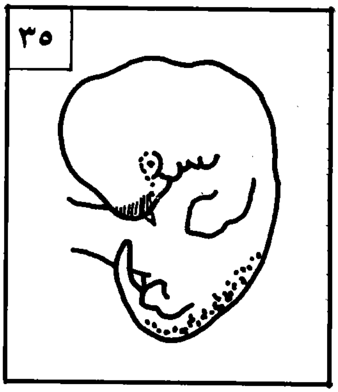

نهاية الأسبوع السادس: حلزونات الأذنين ظهرت.
- وتكون فتحات الفم والأنف متحدة.
- صفيحة القدم قد ضهرت بدون أصابع.
- الشفة العليا تكونت.
- إنحنت الذراعين عند الكوع.
- تقاسيم أصابع اليدين قد ظهرت.
- وفي اليوم الثاني والأربعين يكون طول الجنين قد بلغ ٣, ١ سم تقريبًا.

قال ﷺ: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يارب أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربك ماشاء ويكتب الملك**». رواه مسلم.

وقال تعالى: ﴿**ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾.

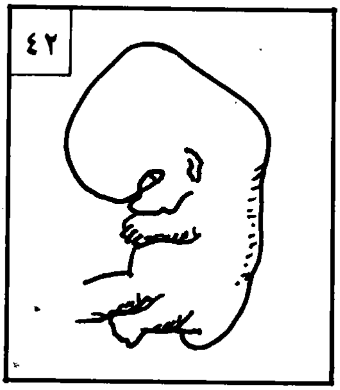

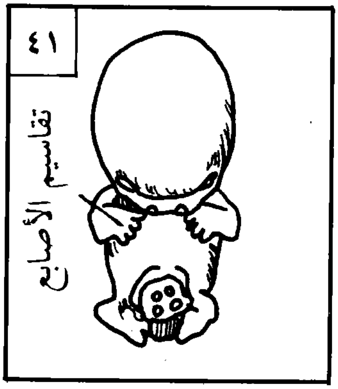

الأسبوع السادس يبلغ طول الجنين ٣, ١ سم.

نهاية الأسبوع السابع:- يظهر الجهاز التناسلي ولكن غير واضح هل ذكر أم أنثى.
- ويطول الجذع ويستقيم.
- يكون طول الجنين ٨, ١ سم.
- وفي الأسبوع الثامن والتاسع والعاشر تكون جميع

أجهزة الإنسان ذكرًا أو أنثى قد بدت واضحة جلية المعالم وطول الجنين الآن نحوًا من ٦ سم.

ويعد الأسبوع العاشر يبدأ الجنين في النمو فقط إذ أنه قد اكتمل خلقه.

قال تعالى: ﴿**الله يعلم ماتحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وماتزداد وكل شيء عنده بمقدار**﴾.

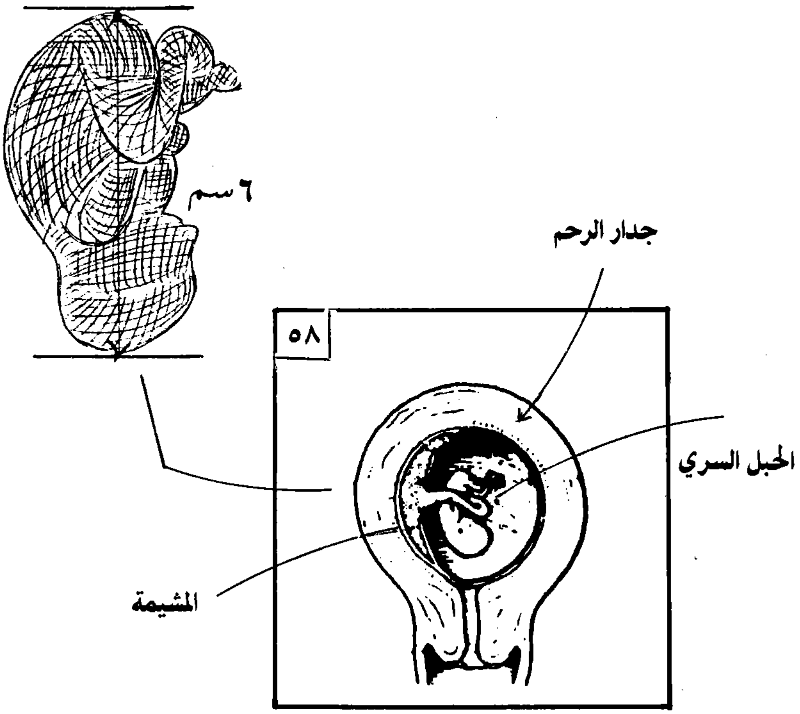

الرحم وبداخله الجنين في وضعه الطبيعي المقلوب

يتطور شكل الجنين إلى الصورة المألوفة لدينا الغير شاذة خلال الأسبوع الثامن والتاسع والعاشر حيث يبلغ طوله نحواً من ٦ سم كامل الأعضاء والتقاطيع غير أنه صغير.

الفصل الثاني

الكون

قال تعالى:

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ
بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا
فَسَوَّىٰهَا

محتوى الفصل الثاني

الصفحة

الكواكب السيارة	١٠٤
فضل التفكر في خلق السماوات والارض	١٠٧
السفر نوعان	١٠٩
العجائب في اختلاف سير الكواكب	١١٠
النجوم	١١١
نور الكواكب	١١٢
السماء	١٢١
الفصول الأربعة	١٢١
تقدير طلوع الشمس	١٢٢
نور الشمس والقمر	١٢٢
طلوع وغروب الشمس والقمر	١٢٤
الليل والنهار	١٢٦
مقدار الليل والنهار	١٢٧
كيفية التفكر والتدبر وجمع القلب لذلك	١٣١
التذكر والتفكر	١٣٤

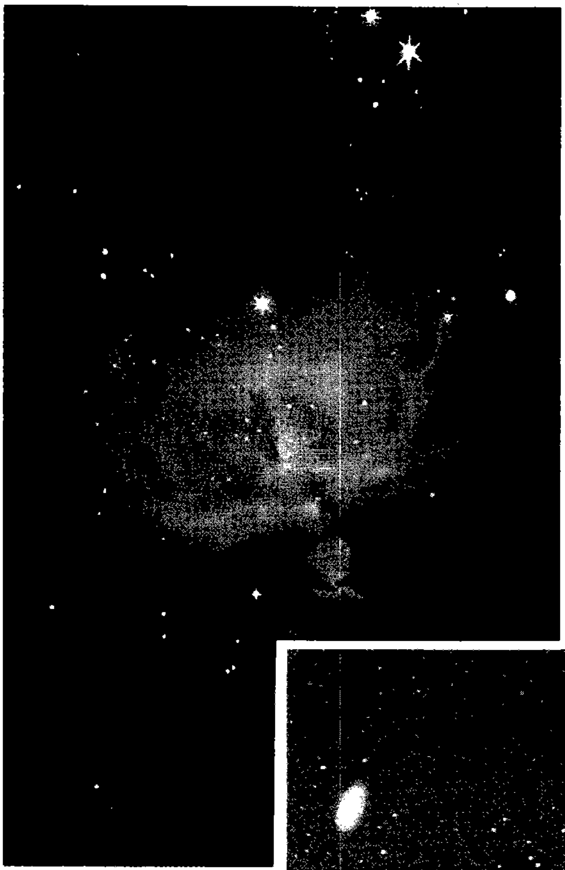

السماء وتكون الكواكب

قال تعالى: ﴿ثم استوىٰ إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾.
فصلت ١١.

* علماء الفلك يقولون إن أصل أجرام السماء من النجوم والكواكب هي مادة دخانية تسمىٰ سديمًا. ولاتزال النجوم إلى يومنا هذا تتكون من هذه المادة، ويتكون هذا السديم من غازات خفيفة تتعلق بها حبيبات صغيرة من مادة صلبة وهو معتم وهذا هو وصف الدخان.

الكواكب السيارة

قال ابن القيم :

ثم تأمل صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها ، فلا ذرة فيها تنفك إلا عن حكمة بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا وأجمع عجائبًا من بدن الإنسان بل لانسبة لجميع مافي الأرض إلى عجائب السموات قال الله تعالى :

﴿أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها﴾ . النازعات - ٢٨ - ٢٧

وقال تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ . البقرة/ ١٦٤

فبدأ بذكر خلق السموات ، وقال تعالى :

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ . آل عمران/ ١٩٠

وهذا كثير في القرآن ، فالأرض والبحار والهواء وكل ماتحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر، ولهذا قلَّ أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارًا عن عظمها وسعتها ، وإما إقسامًا بها ، وإما دعاءًا إلى النظر فيها ، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها ، وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ماأخبر به من المعاد والقيامة ، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لاإله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم القصور فيها على تمام حكمته وقدرته ، وكذلك مافيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر على قليلها ، فكم من قسمٍ في القرآن بها كقوله :

﴿والسماء ذات البروج﴾ ، ﴿والسماء والطارق﴾ ، ﴿والسماء ومابناها﴾ ، ﴿والشمس وضحاها﴾ ، ﴿والنجم إذا هوى﴾ ، ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ . التكوير/ ١٥

وهي الكواكب التي تكون خنساً عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كنساً عند غروبها فأقسم بها في أحوالها الثلاثة ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه،وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله:

﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾[1].

وأظهرُ القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها وأيضًا فإنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تُحمل عليه هذه الآية وجرت عادته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن وأيضًا فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا إقسامه بهَوِيِّ النجم في قوله: ﴿**والنجم إذا هوى**﴾.

وأيضًا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير،وأيضًا فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده هذه طريقة القرآن قال الله تعالى:

﴿**ص والقرآن ذي الذكر**﴾. ﴿**يسن والقرآن الحكيم**﴾، ﴿**ق والقرآن المجيد**﴾، ﴿**حم والكتاب المبين**﴾.

ونظائره (والمقصود أنه سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

---

(١) فلا أقسم بمواقع النجوم:

إن الناظر البدائي يظن النجوم قريبة، وأنه إذا علا إلى رأس الجبل ربما لمس النجوم كما قال فرعون: ﴿**ياهامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطّلع إلى إله موسى**﴾. غير أن التقدم العلمي جاء ليبين الأبعاد لمواقع النجوم وذلك ماجهله الإنسان طويلاً، فالشمس تبعد عنا مسافة ٩٣ مليون ميل تقريبًا ويقطع الضوء هذه المسافة في ثماني دقائق، لأن سرعة الضوء (٣٠٠) ألف كيلو متر في الثانية. والضوء يقطع المسافة بيننا وبين أقرب نجم إلينا في مدة أربع سنوات وربع، ومنها مايبعد عنا مسافة يقطعها الضوء في مائة سنة، ومنها مايسافر منها الضوء إلينا في ألف سنة، ومنها مايبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة مليون سنة، ومنها مايبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في (٣٤٠) مليون سنة، ومنها مايبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة ملايين السنين!! أليس هذا كشفًا لما تضمنته الآية الكريمة من حقيقة بقيت مجهولة مدة طويلة. قال تعالى: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾. (الواقعة: ٧٥، ٧٦).

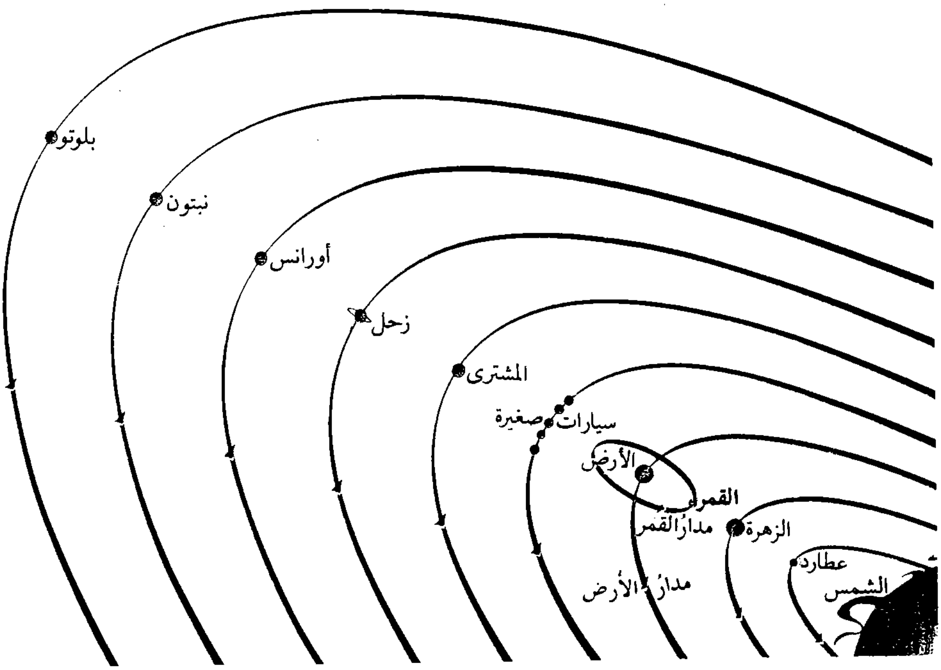

المجموعة الشمسية

مجمـوعتنـا الشمسية وتتكون من الكواكب السيارة والدائرة حولها والمذنبات والشهب، وجميعها تدور في مدارات إهليلجية (بيضوية) ذات اتجاه واحد حول الشمس وتدور حول محاورها هي في الاتجاه نفسه وذلك من الشرق إلى الغرب وجميع الكواكب مظلمة في ذاتها ولكنها تعكس ضياء الشمس،وأقرب الكواكب إلى الشمس هي . . عطارد ـ الزهرة ـ الأرض ـ المريخ ـ ثم مجموعة سيارات صغيرة ـ ثم كواكب غازية هي (المشترى ـ زحل ـ أورانس ـ نبتون) ثم كوكب بلوتو.

فضل التفكر في خلق السماوات والأرض

وقد أثنى سبحانه في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال:

﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا وهم عن آياتها معرضون﴾.

وتأمّل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدة وثاقه من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا﴾.

وقال تعالى:

﴿أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها﴾.

وقال: ﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا﴾.

فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسُبحانَ منْ لايُقَدِّر الخلْقَ قَدْرهُ
ومنْ هُوَ فوقَ العرشِ فردٌ مُوحَّدُ

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينه وإنَّ الله لسميع عليم. فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ولاتغير في سيرها بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لايزيد ولاينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها، وانظر إلى كثرة كواكبها واختلاف ألوانها ومقاديرها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي.

ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لاتتعداه ولاتقتصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عُرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت

المعاش من وقت السبات والراحة،وكيف قدر لها السميع العليم سفرين متباعدين أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثاني سفرها هابطة إلى حضيضها تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها.

وانظر إلى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئًا فشيئًا كل ليلة حتى ينتهي إلى أبداره وكماله وتمامه ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعبادته ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنون وقام حساب العالم مع مافي ذلك من الحكم و الآيات والعبر التي لايحصيها إلا الله.

(وبالجملة فما من كوكب من الكواكب) إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ثم في مقداره ثم في شكله ولونه ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعد مابين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها.وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفًا وستين مرة والكواكب التي نراها كثير منها أصغر بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبُعدُها.

وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك وأنت ترى الكوكب كأنه لايسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر وذلك بعد لحظة واحدة، لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلاً ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة

وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام والعبد غافل عنه وعن آياته وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لانعم فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام.ثم إنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم مافيها وثبتها من غير علاّقة من فوقها ولاعمد من تحتها.[1]

السفـر نوعـان

قال تعالى:

﴿الله الذي خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾.

والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان: نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلاً زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بل الأمر الثاني أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملوكتها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والأمر ينزل من فوقه بتدبير المالك والجنود التي لايعلمها إلا ربها ومليكها فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات

---

(١) قال تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها...﴾ الرعد. يقول العلم الحديث إن لكل كوكب مركز ثقل في داخله،وبالرغم من أن هذه الكواكب والنجوم في حركة مستمرة إلا أن المسافة بين مراكز الثقل بين هذه الكواكب والنجوم ثابتة لاتزيد ولاتنقص،مما يشير إلى أن هناك عمودًا للجذب لايرى يحفظ مراكز الثقل في أجرام السماء على مسافات ثابتة من بعضها بالرغم من الحركة التي تشمل كل هذه الأجرام ... قال تعالى: ﴿**بغير عمدٍ ترونها**﴾.

على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسير وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف لعدوان فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار لعوالم لايشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ولاتغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتبيانها واتحاد وقتها ولايتبرم بإلحاح الملحين ولاتنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم،فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقًا لهيبته خاشعًا لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لايرفع رأسه منها إلى يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ماأبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفرٌ هو حياةُ الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لاكالسفر الذي هو قطعة من العذاب.

العجائب في اختلاف سير الكواكب

ثم تأمَّل اختلاف سير الكواكب ومافيه من العجائب كيف تجد بعضها لايسير إلا مع رفقته ولايفرد عنها سيره أبدًا بل لاتسير إلا جميعًا وبعضها يسير سيرًا مطلقًا غير مقيد برفيق ولاصاحب بل إذا اتفق له مصاحبته في منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى فبينـما تراه ورفيقـه وقرينه إذا رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف سير عام يسير بها فلكها وسير خاص تسير هي في فلكها كما شبهوا ذلك بنملةٍ تَدُبُّ على رحىً ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين فالنملة في ذلك لها حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين إحداهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعًا للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ثم يسير فلكها وبمنزلتها إلى جهة الغرب.

فسل الزنادقة والمعطلة أي طبيعة اقتضت هذا وأي فلك أوجبه هذا وهل كانت كلهـا راتبـة أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان

واحد؟ وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارىء المصور الذي ليس كمثله شيء أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ماصنعه وأنه العليم الحكيم الذي خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر، قال تعالى:

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

فإن قلت فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبًا وبعضها منتقلاً. قيل إنها لو كانت راتبة لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ولتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختارًا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته.

النجـــوم

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يُهتدى بها في طرق البر والبحر وماجعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت. ثم تأمّل تسخيرها منقادة بأمر ربها تبارك وتعالى جارية على سَنَنٍ واحد اقتضت حكمته وعلمه أن لاتخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ومنها مايخفى على الناظر فلا يدركه، وجعل منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدَّر سيرها تقديرًا واحدًا وأنزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها فمنها مايقطعها في شهر

واحد وهو القمر ومنها مايقطعها في عام ومنها مايقطعها في عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبابًا لما يحدثه سبحانه في هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها، كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التي تقارنها وكذلك غيرها من المنازل والسيارات. ثم تأمّل جعله سبحانه (بنات نعش)[١] وماقرب منها ظاهرة لاتغيب لقربها من المركز ولما في ذلك من الحكمة الإلهية وأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر فهم ينظرون إليها وإلى الجندي[٢] والفرقدين[٣] كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاءوا.

نـور الكواكـب

ثم تأمّل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل،والحكمة في ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان،فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسًا لاضوء فيه أصلاً فكان لايتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال. ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لايتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان،جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر مايتأتىّ معه أعمالٌ كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع. فجُعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشم «لئلا يستوي الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم. فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفًا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانًا فسبحان من أتقن ماصنع وأحسن كل شيء خلقه.

(١،٢،٣) مجموعة من النجوم تتخذ للاهتداء بها ليلاً.

الشمس

أو الفرن الذري...

١ - الشمس سراج وهّاج.

٢ - وهي التي تمدنا بالطاقة الحرارية والضوئية والإشعاعية.

٣ - وحجمها يساوي مليون وثلاثمائة ألف مرة قدر حجم الأرض.

٤ - وتبعد عنّا نحو ١٥٠ مليون كيلو متر.

٥ - وضوؤها يصلنا بعد ٨ دقائق وأربعون ثانية تقريبا.

٦ - وتزيد قوة الجاذبية فيها عنا بـ ٢٨ ضعفًا.

٧ - وتدور الشمس حول نفسها في ٢٥ يومًا.

٨ - والشمس نجم هي واحد من ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم تتألف مجرتنا منها وهي لا شيء بالنسبة لغيرها من النجوم الهائلة الحجم.

٩ - وتبعد ٣٢٠٠ سنة ضوئية عن مركز مجرتنا.

١٠ - حرارة سطح الشمس ٥٥٠٠ درجة وتزداد حرارتها كلما اتجهنا إلى النواة حتى تصل إلى ١٠ ملايين درجة مئوية.

١١ - الهيدروجين هو العنصر الرئيسي فيها.

١٢ - وبسبب الحرارة الشديدة تلك فإن الشمس تفقد من كتلتها مايقارب ٤ طن في الثانية بسبب التفاعلات الكيمائية الحرارية وهذا هو سبب الطاقة التي نستفيد منها.

١٣ - عمر الشمس لا يقل عن ٥٠٠٠ مليون سنة والمجرة أقدم من ذلك بكثير.

فسبحان من أقسم بالشمس. فقال: ﴿**والشمس وضحاها**﴾.

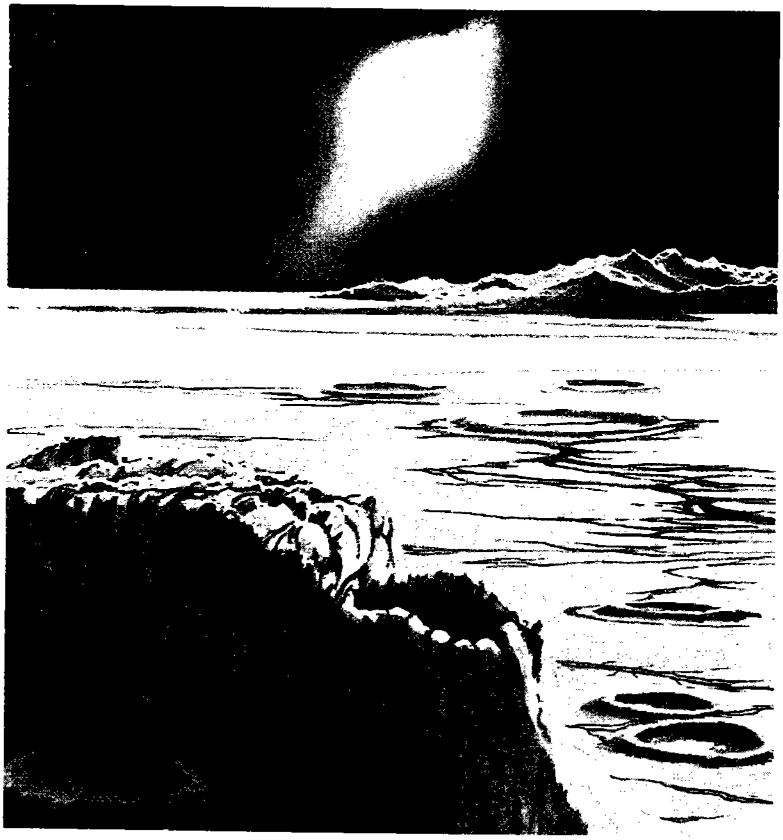

كوكب عطارد

عطارد هو أصغر الكواكب السيارة، وأقربها إلى الشمس. تبلغ درجة حرارة وجهه المقابل للشمس، ٤٠٠ درجة مئوية. بينما تتدنى حرارة الوجه المظلم إلى ـ ١٥٠ درجة مئوية تحت الصفر. وبالنظر إلى ارتفاع الحرارة الشديد على سطح عطارد، وإلى فقدان الأكسجين في غلافه الجوي، يستبعد العلماء وجود أية حياة على سطحه، يبلغ قطر عطارد حوالي ٤٠٨٨ كيلومترًا، وهو يدور، حول الشمس، مرة كل ٨٨ يومًا وبسبب جاذبية الشمس، فإن النهار، والليل، على عطارد،يستغرقان ١٧٦ يومًا أرضيًا.

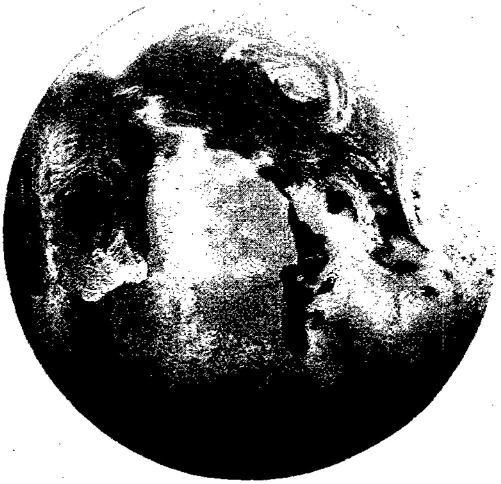

كوكب الأرض

إذا نظرت إلى الأرض، من الجـو، رأيتها زرقاء وبيضاء اللون .فاللون الأزرق يدل على وجود المياه، التي تغطي ٧٠, مساحـة سطح الأرض. أما اللون الأبيض فيدل على بخار المياه،المجتمع بشكل غيوم. ويبلغ قطر الأرض ١٢٧٦٠ كيلومـترًا وهي تدور حول محورهـا [بعكس عقارب الساعة] مرة كل ٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة فينشأ، عن ذلك، تعاقب الليل والنهار.

كوكب الزهرة

مقـارب حجمـه لحجم كوكب الأرض بنحـو ٨٨٪. وسرعتـه في الـدوران حول الشمس ٣٥ كم/ثانية ويبعد عن الشمس ١٠٨ مليون كم وتغلف أجواء كوكب الـزهرة سحب ثاني أكسيد الكربون ودرجة الحرارة فيه تقارب الـ ٤٨٠ درجة مئوية ويدور حول نفسه في ٢٤٣ يومًا.

كوكب المشترى

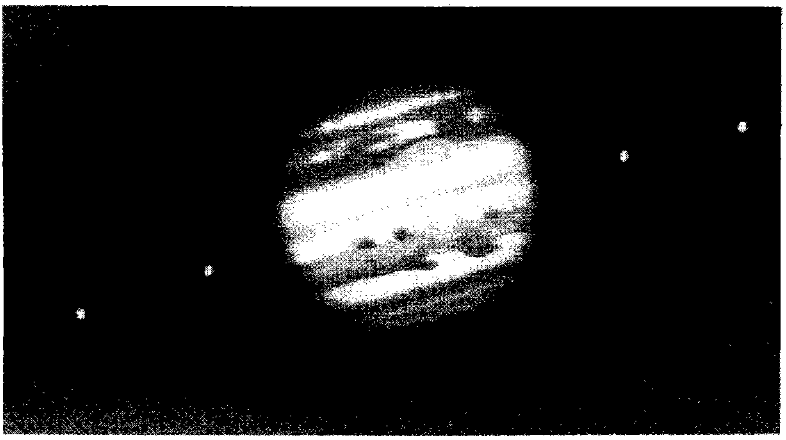

- له ٤ أقمار   ويبعد عن الشمس ٧٧٨ مليون/كم .
- قطر خط الاستواء ١٤٢٨٠٠كم .
- يدور حول الشمس في ١١,٨٦ سنة .
- وحول نفسه في ٩ ساعات و٥٠ دقيقة و٣٠ ثانية .
- والعناصر المكونة للجو الهيدروجين والهيليوم .
- ويكبر عن حجم الأرض بنحو ١٣ مرة .
- سرعته المدارية ١٣كم/ثانية .

كوكب زحل

زحـل هو ثاني الكـواكب من حيث الضخامة يتميز بالحلقات التي تحيط به كطوق جامد، يضفي عليه جمالاً خاصًا. وقد أثبتت الرحلات الفضائية أن عدد هذه الحلقات يبلغ المئات، وهي تتكون من ملايين قطع الثلج. قطر زحل حوالي ١١٩٦٠٠ كيلومتر، يدور حول محوره مرة كل ١٠ ساعات ١٤ دقيقة، ويدور، حول الشمس، مرةً كل ٢٩ سنة ونصف السنة.

ويتـألف زحل من الغاز، فهو، بالتالي، خفيف جدًا، يمكنه أن يطفو على سطح الماء.

نبتون

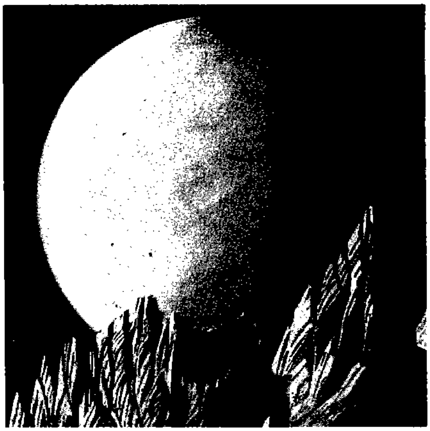

نبتون وأورانوس هما كوكبان متشابهان: لونهما يميل إلى الاخضرار، وفي وسطهما جبال جليدية، وحجمهما شبه متواز ولكن نبتون يدور حول محوره.مرة كل ١٦ ساعة، ويدور حول الشمس، مرة كل ١٦٥ سنة.

أورانوس

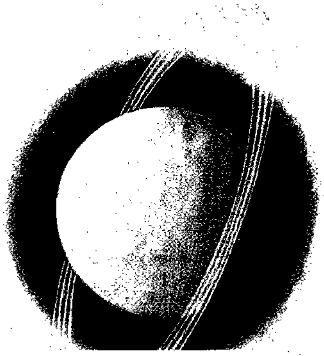

تُحيطُ بكوكب أورانوس طبقة كثيفة من السحب، ويتألف غلافه الجوي من حلقات الهيدروجين والميثين [Methane]. قُطره حوالي ٥١٨٠٠ كيلومتر يدور حول محوره، مرة كل ١٠ ساعات و٨٤ دقيقة، ويدور حول الشمس، مرة كل ٨٤ سنة.

وبما أن محوره شديد الانحناء، فإن أحد قطبيه يبقى ٤٢ سنة لا يقابل أشعة الشمس. وهذه المدة أطول فصل شتاء في النظام الشمسي.

بلوتو

بلوتو هو أبعد الكواكب عن الشمس، وأصغرها، فقطره حوالي ٣٠٠٠ كيلو متر، ولشدة بعده عن الأرض، لايملك العلماء معلومات دقيقة، عن كتلته وكثافته وحجمه. ويعتقد بعض العلماء، بأن بلوتو ليس كوكبًا في حد ذاته بل قمر تابع لكوكب نبتون. ويدور بلوتو، حول محوره، مرة كل ٦ أيام ٩ ساعات، ويدور حول الشمس مرة كل ٢٤٨ سنة.

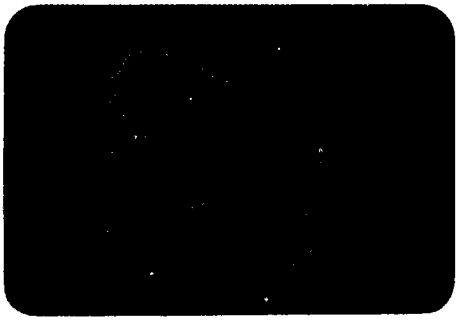

المجرّةُ الإهليلجيّة

المجرّةُ اللّوبيّةُ المشطوبةُ

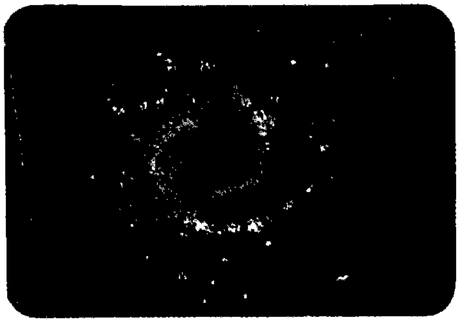

المَجرَّةُ اللّوليّةُ

المجرات كلها أصلها سديمًا

ميلان الأرض

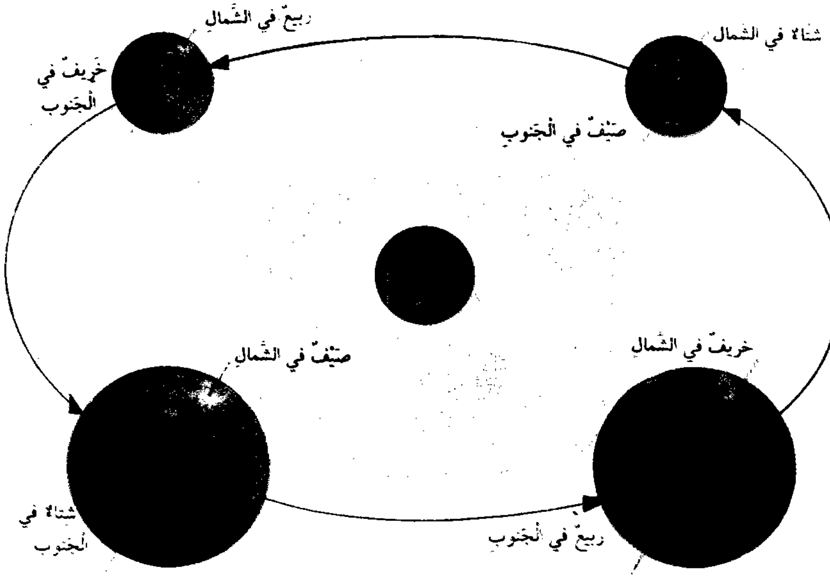

الكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ٢٣ درجة. ولهذا دواع دعت إليه: فلو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان القطبان في حالة غسق دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالاً وجنوبًا، مكدِّسًا في طريقه قاراتٍ من الجليد، وربما ترك صحراءً بين خط الإستواء والثلج. وفي هذه الحالة كانت تنبعث أنهار من الجليد، وتتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح، لتكون بركًا مؤقتة من الملح الأجاج (ملاحات)، وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين، فيؤدي ذلك إلى فرطحة خط الاستواء أو فورانه، أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة، كما أن انخفاض المحيط يَعْرِضُ مساحات شاسعة جديدة من الأرض، ويقلل من هطول المطر في جميع أرجاء العالم، مما ينجم عن ذلك عواقب مخيفة.

السماء

فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرّةً كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لاتصعد علوًا كالنار ولاتهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولاعمد تحتها ولاعلاّقة فوقها بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا. ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولافطر ولاشق ولاأمت ولاعوج. ثم تأمل ماوضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وماقرب منها إلى السواد وقال الأطباء إن منْ كَلَّ بصره فإن من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء فتأمَّل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولايتكىء فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك.

الفصول الأربعة

ثم تأمَّل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول ومافيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفًا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان شتاء كله لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعًا كله أو خريفًا كله.

ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكشف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ماحللته حرارة الصيف من الأبدان.

وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل.

وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن جدًا فتنضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد

العيون والآبار ولاتهضم المعدة الطعام الذي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه.

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السَّمُوم وجعله الله بحكمته برزخًا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا يتنقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ماهو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول، حكمة بالغة وآية باهرة، وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب فتبارك الله رب العالمين أحسن الخالقين.

تقدير طلوع الشمس

ثم تأمَّل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدَّره العزيز العليم سبحانه فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولاتعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر وكأن يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع عليهم والنهار سرمدًا على من هي طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدَّر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ماقابلها من الأفق الغربي ثم لاتزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ماستتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم.

نور الشمس والقمر

ثم تأمَّل حال الشمس والقمر وماأودعاه من النور والإضاءة وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذي لاغناء لهم في مصالحهم عنه فبذلك يُعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولا حلول الشمس

منازل القمر

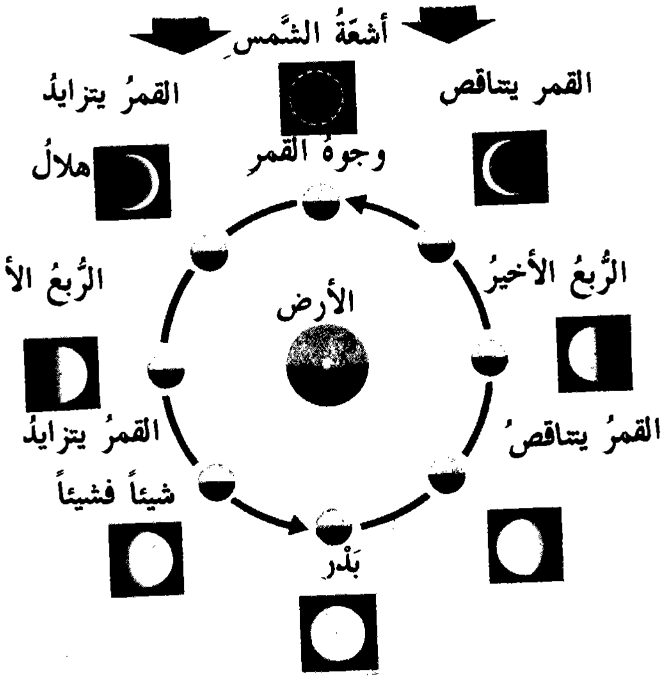

القمر جرم سماوي تابع للأرض قطره ٣٤٧٥ كيلو مترًا يدور حول الأرض من الغرب إلى الشرق في مدة ٢٩ يومًا و١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة وثانيتين. وتضيء الشمس نصف القمر المقابل لها. وهو كوكب لايدور حول نفسه ولذا فإن صورة وجهه واحدة لاتتغير بالنسبة لنا.

والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك.وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله:

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وقال تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾.

طلوع وغروب الشمس والقمر

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور. ثم تأمَّل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولاقرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء. ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ماعليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدأوا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل:

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾.

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان

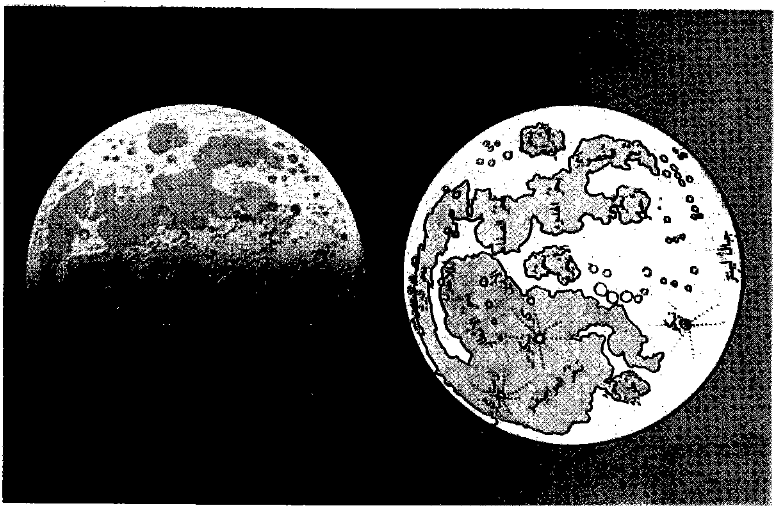

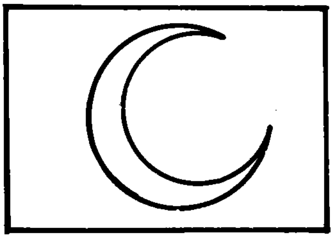

القمر

وجه القمر المقابل لنا

يبعد القمر عنَّا مسافة ٢٤٠,٠٠٠ ميل، ويذكرنا المد الذي يحدث مرتين تذكيرًا لطيفًا بوجود القمر. والمد الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدمًا في بعض الأماكن، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر في نفس الوقت الذي يبدو لنا كل شيء منتظمًا لدرجة أننا لاندرك القوة الهائلة التي وراء ذلك فما أعظمك يارب العالمين. ولو أن مدار القمر غير ماهو عليه الآن لحصل من المد والجزر مايفتت الجبال الرواسي ويزحزح القارات عن أماكنها، فسبحان من وضع كل شيء في مكان بميزان لايعلمه إلا هو.

السمع فقوله(أفلا تسمعون)راجع إلى قوله(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم به)وقوله(أفلا تبصر ون)راجع إلى قوله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة)وقال تعالى:

﴿تبارك الذي جعل في السماء بر وجًا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيراً وهو الذي جعل الليل والنار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا﴾.

فذكر تعالى خلق الليل والنهار وانهما يخلف أحدهما الآخر لايجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعليقهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لايجامعه ولايجاذبه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثًا حتى يزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائمًا يتطالبان ولايدرك أحدهما صاحبه.

الليـل والنهـار

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن كقوله تعالى:

﴿ومن آياته الليل والنهار﴾.

وقوله: **﴿وهو الذي جعل الليل لباسًا والنوم سباتًا وجعل النهار نشورا﴾**.

وقوله عز وجل: **﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾**.

وقوله عز وجل: **﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾**.

وهذا كثير في القرآن فانظر أي هاتين الآيتين وماتضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله ورحمته وكيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشي العالم فتسكن فيه الحركات وتأوي الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصر ون فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها

فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادةً ومألفًا منعها من الإعتبار به والإستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم. ولاضعفَ في قدرة القادر التام القدرة ولاقصورٌ في حكمته ولافي علمه يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء،وهذا أيضًا من آياته الباهرة أن يُعمي عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولايبصرها كمن هو واقف في الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء وبهذا وأمثاله يُعرفُ الله عز وجل ويُشكر ويُحمد ويُتضرع إليه ويُسألْ.

مقدار الليل والنهار

ثم تأمَّل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأنَّ مقدار اليوم والليلة لو زاد على ماقدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت بذلك،بل جعل مكيالها أربعا وعشرين ساعة وجُعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه قال الله تعالى: ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**﴾ وفيه قولان أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار،والقول الثاني أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخرولايذهب جملةً وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار مايلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ماتنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لايسكنه الإنسان ويتكون فيه النبات وكل موضع لاتقع عليه الشمس لايعيش فيه حيوان ولانبات لفرط برده ويبسه وكل موضع لاتفارقه كذلك لفرط حره ويبسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفان وربيعان.

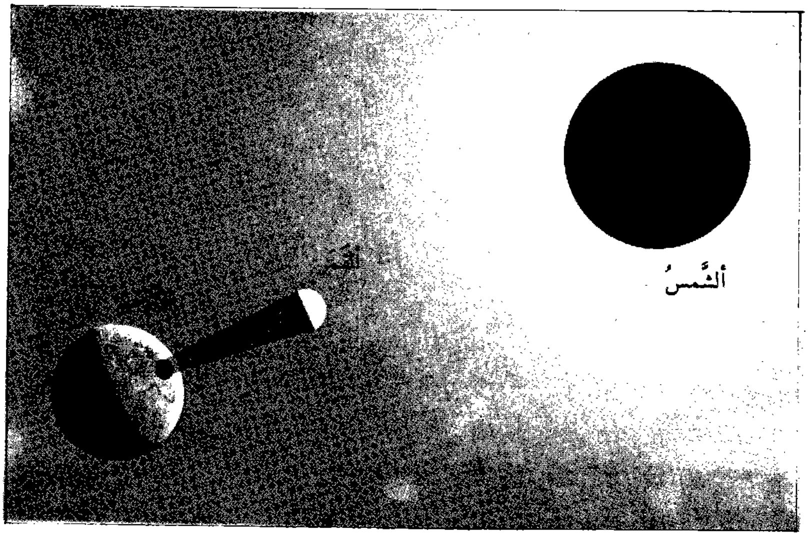

يُبيِّن لنا الرَّسمُ أَعلاه ٱلسبَبَ في كَوْنِ كُسوفِ الشَّمسِ لا يَحْدُثُ إلا في ٱلمناطقِ الاستِوائيَةِ وفي وَقت ٱلمحَاقِ.

الكسـوف للشمس حيث يكون القمر بيننا وبين الشمس وكأنك تحجب ضوء الشمس بيدك عن عينيك.

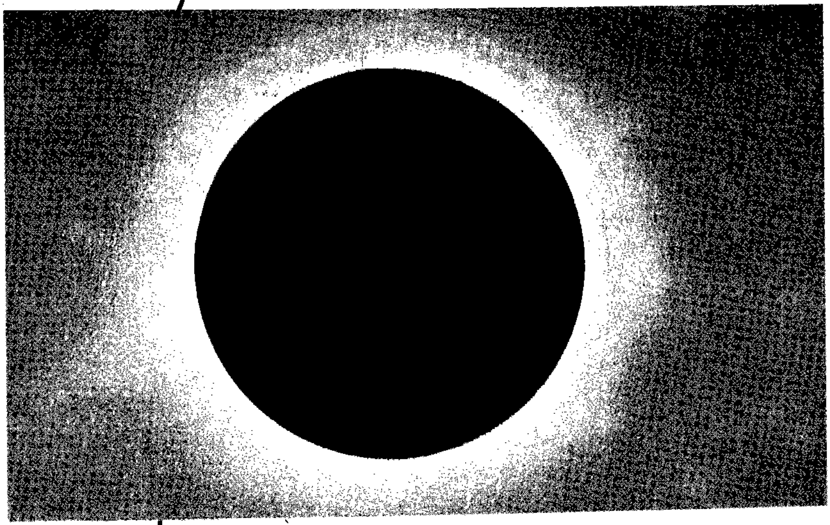

إيَّاكَ أن تُراقِبَ كُسُوفَ ٱلشَّمسِ مُباشَرةً ! إنّ الكُسُوفَ ٱلكُلِّيَّ لِلشَّمْسِ هُوَ ظاهِرَةٌ نادِرَةٌ يَنْتَظِرُها ٱلعُلماءُ لِدراسَةِ طَبيعَةِ ٱلشَّمسِ.

الكسوف الكلي للشمس كما يبدو لنا من الأرض عندها تتأكد لنا سنة صلاة الكسوف كما جاءت عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه..

وتأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله:

﴿هو الذي أنزل من السماء ماءًا لكم منه شراب. . . ﴾.

وختمها بأصحاب الفكر فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد وهو الماء الـذي أنزله من السماء فأخرج به ما ذكره من الأرض وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته.

وأمـا تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضـع فكر وهو نظر القلب وتأمله لاموضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حين ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وبارئه وذلك هو الفكر بعينه وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها:

﴿إن في ذلك لآيات لقومٍ يعقلون﴾.

فجمـع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهـار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفيتها فإن إظلام الجو لغروب الشمس ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخـرى، وفي النجوم آيات أخر كما قدمنا، هذا مع مايتبعها من الآيات المقـارنة لها من الرياح واختلافها وسائر مايحدث الله بسببها آيات أخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر والأولى كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف مايستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمله، فأما قوله في الآية الثالثة:

﴿إن في ذلك لآية لقومٍ يذّكّرون﴾.

فوحّد الآية وخصّها بأهل التذكر، فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواءً فإن ماذرأ في الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله في محل

كيفية التفكر والتدبر وجمع القلب لذلك

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه كيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام ومافي طي ذلـك من اختـلاف الليل والنهـار والفصول والحر والبرد ومافي ضمن ذلك من مصالح ماعلى الأرض من أصناف الحيوان والنبات،وهل يخفى على ذي بصيرة أنها إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم!ولهذا خاطب الرسل أممهم مخاطبة من لاشك عنده في الله وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لاإلى الإقرار به فقالت لهم:

﴿أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾.

فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهرُ من كل شيءٍ على الإطلاق،فهو أظهر للبصائر من الشمس للإبصار وأبين للعقول من كل ماتعلقه وتقر بوجوده فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها كلها تكذبه قال تعالى:

﴿الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصِّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارًا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات﴾ الآية.

وقال تعالى:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات للمؤمنين﴾.

وقال تعالى:

﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة﴾.

السهم يشير إلى موقع مجموعتنا الشمسية من المجرة التي نحن ذرة من ذراتها.

الشعاع النجمي

النجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها. وكثير أشعتها يميت كل نوع معروف من أنواع الحياة. وتتراوح كثافة هذا الإشعاع وحجمه بين ماهو أقل من إشعاع وماهو أكثر منه عشرة آلاف مرة، ولو أن شمسنا أعطتنا نصف إشعاعها الحالي فقط، لكنا تجمدنا. ولو أنها زادت بمقدار النصف، لأصبحنا رمادًا من زمن بعيد، هذا إذا كنا قد ولدنا بوصفنا شرارة بروتوبلازمية (خلية) للحياة. ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة. أفلا يجدر بك أخي القاريء أن تتأمل هذا؟.

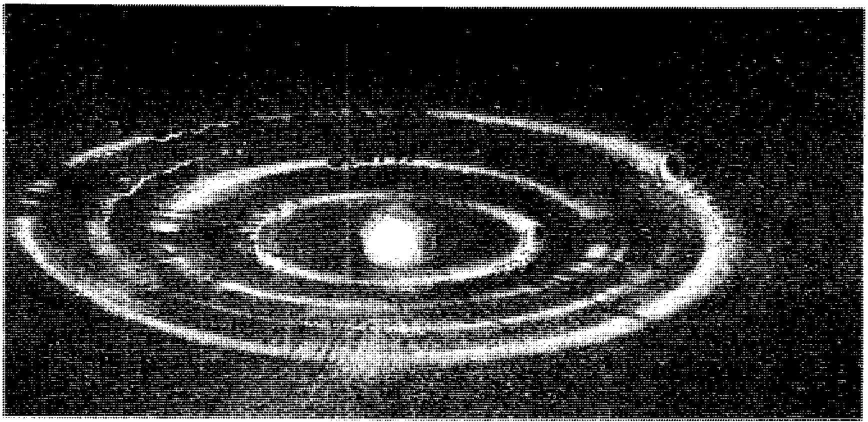

بداية تكون الأرض

إذا كان صحيحًا أن درجة حرارة الكرة الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالي ١٢,٠٠٠ درجة، أو كانت تلك درجة حرارة سطح الشمس، فعندئذ كانت كل العناصر حرة، ولذا لم يكن في الإمكان وجود أي تركيب كيموي ذي شأن. ولما أخذت الكرة الأرضية، أو الأجزاء المكونة لها، تبرد تدريجيًا، حدثت تركيبات، وتكونت خلية العالم كما نعرفه. وماكان للأوكسجين والهيدروجين أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة فهرنهايت. وعند هذه النقطة اندفعت معًا تلك العناصر وكونت الماء، الذي نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية، ولابد أنه كان ها ئلًا في ذلك الحين. وجميع المحيطات كانت في السماء، وجميع تلك العناصر التي لم تكن قد اتحدت، كانت غازات في الهواء. وبعد أن تكوَّن الماء في الجو الخارجي سقط نحو الأرض، ولكنه لم يستطع الوصول إليها، إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال في خارجها. وبالطبع جاء الوقت الذي صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض ليطير منها ثانيًا في شكل بخار. ولما كانت المحيطات في الهواء، فإن الفيضانات التي كانت تحدث مع تقدم التبريد، كانت فوق الحسبان. وتمشى الجيشان مع التفتت، وسادت حال من الفوضى لايمكن وصفها ملايين من السنين. وفي هذا الاضطراب الذي لايمكن إدراكه، كان الأوكسجين يتحد مع جميع مواد قشرة الأرض تقريبًا. وقد اتحد أيضًا مع كل الهيدروجين الذي اتصل به، وبذا تكوَّن المحيط. ولابد أن مقادير هائلة من الهيدروجين قد فرَّت من جاذبية الأرض قبل أن تبرد هذه، ولولا ذلك لكانت كتلة الماء قد بلغت الآن من الضخامة بحيث كانت تغرق الأرض إلى عمق أميال. وربما هدأت الأشياء واستقرت منذ بليون سنة، وبذا كونت الأرض الصلبة والمحيطات، والجو - أي ذلك الراسب الذي نسميه بالهواء. وكان اتحاد العناصر كاملًا لدرجة أن ماتُرِك، وهو الهواء المكون من الأوكسجين والنتروجين على الأخص، لايزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية.

واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه، وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة إلقائه في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر،كما قال تعالى في سورة ق:

﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب﴾.

فالتبصرة التعقل والتذكرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل.

التذكر والتفكر

فإن قيل فما الفرق بين التذكر والتفكر؟ فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة، قلت التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسَّعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه. قال الحسن: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار،(فاعلم)أن التفكر طلب القلب ماليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها، هذه حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون موردًا للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه، فإذا عُرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمباديء التي عنده إلى المطلوب الذي يريده فإذا ظفر به وتحصل به تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وماينبغي إيثاره وماينبغي اجتنابه. فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج مالم يكن حاصلاً عنده فهو لايزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكر على تفكره مادام عاقلاً،لأن العلم والإرادة لايقفان على حدٍ بل هو دائمًا سائرٌ بين العلم والإرادة (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته،فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله

بالتبصر، وإما غفلته وزواله بالتذكر. والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله، ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفذ الزمان ولن نحيط بتفصيل واحدةٍ من آياته على التمام ولكن مالا يُدْرك جملةً لايترك جملة(وأحسن)ماأنفقت فيه الأنفـاس التفكـر في آيات الله وعجائب صنعه والإنتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الأصلين إذ هما أفضل مايكتسبه العبد في هذه الدار.

فسل المعطل الجاحد ماتقول في دولابٍ دائرٍ على نهرٍ قد أحكمت آياته وأحكم تركيبه وقدرات أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لايرى الناظر فيه خللاً في مادته ولا في صورته وقد جُعل على حديقةٍ عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفي تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يخْتلّ منها شيء ولايتلف ثمارها، ثم يَقْسِم قيمتَها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم مايليق به ويقسمه هكذا على الدوام،أفترىٰ هذا اتفاقًا بلا صانعٍ ولامختار ولامدبر؟ بل اتفق وجـود ذلـك الـدولاب والحـديقـة وكل ذلك اتفاقًا من غير فاعل ولاقيم ولامدبر، أفترى مايقول لك عقلك في ذلك لو كان؟ ومالذي يفتيك به ومالذي يرشدك إليه؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبًا عميًا لابصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمة كما خلق أعينًا لاأبصار لها والشمس والقمـر والنجـوم مسخـرات بأمـره وهي لاتراها فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها فهي تقول في ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئًا ولقد أحسن القائل:

وهبني قلت هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء

ثم تأمَّل الممسك للسموات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض مافيهما أفترى من الممسك لذلك؟ ومن القيم بأمره؟ ومن المقيم له؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه؟ ومـاذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده؟ كما كان فلو أمسك عنهم قيمُ السموات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدًا، من الذي كان يطلعها

عليهم وتأتيهم بالنهار ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فمن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل ولو أن السماء والأرض زالتا فمن ذا الذي كان يمسكهما من بعده؟ .

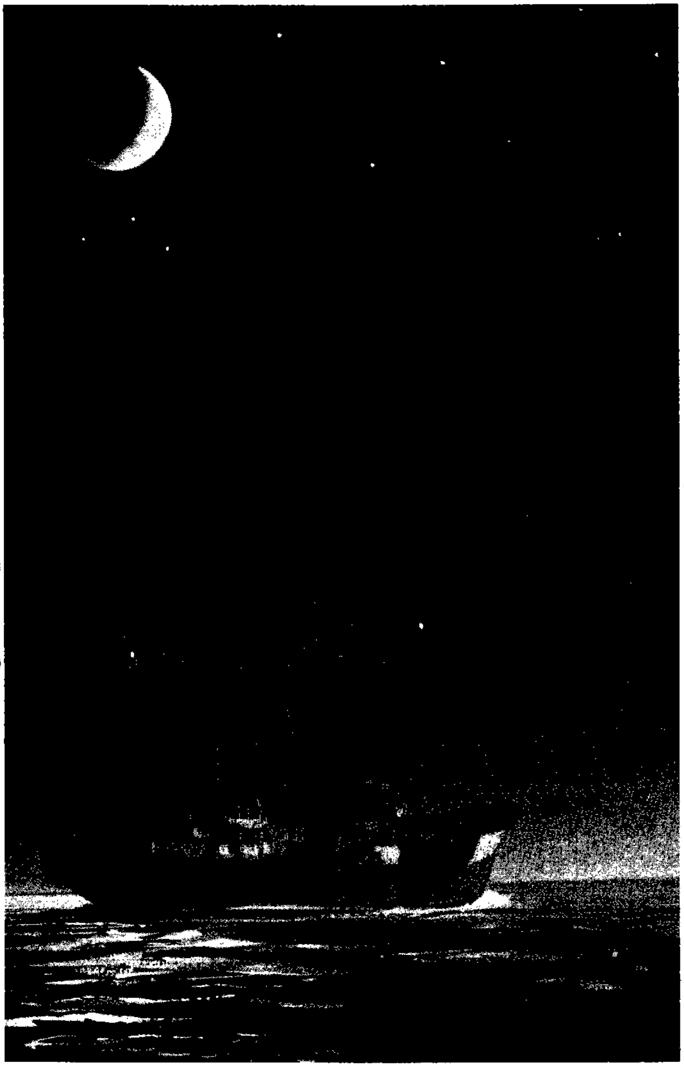

وللقمر أثر ونعمة كبيرة علينا بفعل المد والجزر.

الفصل الثالث

الحيوان

قال تعالى:
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ
لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ
إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ
لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ.

محتوى الفصل الثالث

	الصفحة
خلق الحيوان	١٤٠
تسخير الحيوانات	١٤١
خلق آلات البطش	١٤٢
خلق الأنياب والمخالب	١٤٢
حكمة الامر وحكمة الخلق	١٤٤
قوائم الحيوان	١٤٦
ظهور الحيوانات	١٤٦
كساء الانسان وكساء الحيوان	١٤٧
وجه الحيوان	١٤٨
كثرة الحيوانات	١٤٩
رحمة الحيوان	١٥١
الفيل	١٥٢
الزرافة	١٥٣
اختلاف المخلوقات من حكمه الباري	١٥٤
الحيوان والحيل	١٥٥
الطيور تطير	١٥٦
البيضة	١٥٨
حوصلة الطائر	١٦١
الريش واختلاف الالوان في الطيور	١٦١
طول الساقين لبعض الطيور	١٦٢
طلب الرزق	١٦٣
كثرة الحشرات	١٦٣
الخفاش	١٦٤
هداية البارى	١٦٥

النمل	١٦٦
النحل	١٦٧
صناعة العسل وفوائده	١٦٩
شروط الشفاء بالعسل	١٧٠
اللبن	١٧١
السمك	١٧٣
الجراد	١٧٤
حق المظلوم	١٧٥
سنة الله في الخلق	١٧٦
الحكمة من مسخ الانسان إلى حيوان	١٧٧
الحكمة في ارسال الرسل.	١٧٨

خلق الحيوان

قال ابن القيم :

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه، فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجليه ومنه الماشي على أربع، ومنه ماجُعل سلاحه في رجليه وهو ذو المخالب ومنه ماجعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب ومنه ماسلاحه الأسنان ومنه ماسلاحه الصياصي وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه، ومنه ماأعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فإن سلاحه قوته ومنه ماسلاحه في ذرقه وهو نوعٌ من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه(1). ونحن نذكر هنا فصولاً منثورة من هذا الباب مختصرة وإن تضمنت بعض التكرار وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهم فصول الكتاب بل هو لب هذا القسم الأول ولهذا يكرر في القرآن ذكر آياته ويعيدها ويبديها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى فهو من أَجَلِّ مقاصد القرآن قال الله تعالى :

﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ . وقال تعالى :

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ . وقال تعالى :

---

(١) وأنواع الحيوان كثيرة يفوق عددها المليون وأكثرها الحشرات حيث أن :

الحشرات يقارب عددها الـ	٨٠٠ر٠٠٠ نوع
الأسماك	٣٠ر٠٠٠ نوع
الطيور	٩ر٠٠٠ نوع
الزواحف	٦ر٠٠٠ نوع
اللبونات	٤ر٠٠٠ نوع

ومن أنواع الكائنات أيضًا البكتريا (وهي مخلوق وحيد الخلية)، والفيروسات (مخلوق وحيد الخلية) والتي هي أصغر الكائنات الحية حيث يلزمنا ربع مليون فيروس لتغطية هذه النقطة.
فسبحان من خلق الحوت وخلق الفيروس وقدّر أرزاقها.

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾.

تسخير الحيوانات

ثم تأمَّل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لما يصلحها ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يُتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له فأُعْطِيَتْ من التمييز والإدراك ماتتم به مصلحتها من ذلك له وسُلِبَتْ من الذهن والعقل ماميز به عليها الإنسان وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص. ثم تأمَّل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره. قال الله تعالى:

﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾. أي مطيقين ضابطين.

وقال تعالى:

﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾.

فترى البعير على عِظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلاً منقادًا ولو أرسل عليه لسوَّاه بالأرض ولفصله عضوًا عضوًا! فسل المعطل،من الذي ذلله وسخَّره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده؟ فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال مايزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأُعينوا بهذه الحيوانات مع ماهم فيها من المنافع التي لايحصيها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأواني والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال.

خلق آلات البطش

ثم تأمَّل الحكمة في خلْق آلات البطش في الحيوانات وغيره من الإنسان فالإنسان لما خُلِقَ مهيأ لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله، والحيوان البهيم لمّا لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع بل لما قدر أن يكون غداء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولاتصلح للصناعات، هذا كله في أكله اللحم من الحيوان، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لاتصطاد ولاصنعة لها خلق لبعضها أظلافًا تقيها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى، ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض وتهيأ للركوب والحولة ولم يخلق لها براثن ولا أنيابًا لأن غذاءها لايحتاج إلى ذلك.

خلق الأنياب والمخالب

ثم تأمَّل الحكمة في خلق الحيوان الذي يأكل اللحم من البهائم كيف جعلت له أسنان حداد وبراثن شداد وأشداق مهرونة وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد والأكل، ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب كالكلاليب، ولهذا حرَّم النبي ﷺ كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير لضرره وعدوانه وشره، والمغتذي شبيه بالغاذي فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرها مايشابهها به، فحرَّم على الأمة أكلها ولم يحرِّم عليهم الضبع وإن كان ذا ناب فإنه ليس من السباع عند أحد من الأئمه والتحريم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب وأن يكون من السباع ولايقال هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبدًا، فصلوات الله وسلامه عليه من أوتي جوامع الكلم قد وضح الأحكام وبيَّن الحلال والحرام.

آلات البطش عند الطيور

حكمة الأمر وحكمة الخلق

فانظر حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه، تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التي لايختل نظامها ولاينخرم أبدًا ولايختل أصلاً،ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا حكمته فيما أحكمه وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجات لايحصيها إلا الله ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر وهم أكثر الأطباء الذين صرفوا أفكارهم إلى استخراج منافع النبات والحيوان وقواها وماتصلح له مفردة ومركبة وليس لهم نصيب في حكمة الأمر إلا كما للفقهاء من

حيوان القندس المهندس:

إنَّ مسكن القندس إنجاز رائع في بنائه وهندسته. فمجموعة القنادس تستغرق كثيراً من الوقت والطاقة لبناء سد في عرض جدول أو نهر تختاره لإقامتها، لأنها بحاجة إلى ماء عميق ونظيف، فتقطع الأشجار بقضمها بأسنانها الحادة القارضة ثم تجرها أو تعومها لتثبت في موضعها. وعندما ينتهي هيكل السد الرئيسي يملأ بالأغصان المقطوعة والصخور والوحل، وتستطيع القنادس بناء سد علوة ثلاثة أمتار ونصف متر وطوله ثلاثون متراً.

وعندما تنتهي القنادس من بناء السد ويصبح عمق الماء مناسبًا، فإنها تقيم مساكنها الخاصة، فتبني جزرًا في الماء العميق وتحيطها بجدران وتسقفها بقبب من العيدان والوحل. وفي الشتاء عندما يتجلد الوحل، كما هي الحال في كندا وشمال أوروبا حيث تقطن القنادس، فإن المسكن يصبح قويًا ودافئا من الداخل. أما مداخل هذه المساكن فهي ثقوب تحت الماء. وهكذا فإنَّ مساكن القنادس آمنة جدًا من الأعداء.

حكمة الخلق بل أقل من ذلك ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر بحسب استعداده وقوته فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا فإذا نظر إلى خلقه ومافيه من الحكم ازداد إيمانًا ومعرفة وتصديقًا بما جاءت به الرسل وإذا نظر إلى خلقه ومافيه من الحكم ازداد إيمانًا ويقينًا وتسليمًا لاكمن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها فعمي بصره وغلظ عن الله حجابه ولو أعطى علمه حقه لكان من أقوى الناس إيمانًا لأنه أُطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ماخفي عن غيره ولكن من حكمة الله أيضًا أن سلب كثيرًا من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لدناءتها وخستها وحقارتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأسرار دينه وشرعه والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذا باب لايطلع الخلق منه على ماله نسبة إلى الخافي عنهم منه أبدًا بل علم الأولين والآخرين منه كنقرة العصفور من البحر ومع هذا فليس ذلك بموجب للإعراض عنه واليأس منه يستدل العاقل بما ظهر له منه على ماوراءه.

قوائم الحيوان

ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان كيف اقتضت أن يكون زوجًا لا فردًا إما اثنتين وإما أربعًا ليتهيأ له المشي والسعي وتتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فردًا لم يصلح لذلك لأن الماشي ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرىٰ وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ولكان مشيه نقرًا كنقر الطائر وذلك مما يؤذيه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلاً أجهده وشق عليه بخلاف مشيه الطبيعي الذي هو له فاقتضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجليه وإقرار يسرى اليدين ويمنى الرجلين ثم نقل الأخريين كذلك وهذا أسهل مايكون من المشي وأخفه على الحيوان.

ظهـور الحيـوانات

ثم تأمَّل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة عليها ثم خولف هذا في الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ماتحمله، والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل. وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضًا طول عنقه موازنًا للحمل على ظهره إذا استقل به كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل إن القبان إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل مايحمله ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة.

كساء الانسان وكساء الحيوان

ثم تأمّل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمي هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسى بعض الدواب من الجلد ماهو في غاية الصلابة والقوة كالسلحفاة[1] وبعضها من الريش ماهو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذي يريد أذاها فإنها لما لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب أعينت بملابس وكسوة لاتفارقها، وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدمت الأحذية والنعال فمعها حذاؤها وسقاؤها. وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجري وجعل لها ذلك أيضًا عند انتصافها من خصمها عوضًا عن الصياصي والمخالب والأنياب والبراثن فتأمّل هذا اللطف والحكمة فإنها لما كانت بهائم خرسًا لاعقول لها ولاأكف ولاأصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسج[2] والغزل ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها مابقيت لاتحتاج إلى الاستبدال بها وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك تتم الحكمة التي أريدت بها ومنها.

---

(١) جاء عن السلحفاه المسماه بـ (سلحفاه فلوريدا) أنها عندما تشم رائحة دخان من بعيد الناتج من الحريق، وحيث أنها بطيئة المشي إلا أن الله سبحانه قد هداها إلى مافيه نجاتها حيث تحفر لنفسها حفرة وتدع اللهب يمر فوق ظهرها المدرع دون أن يؤذيها.

(٢) حيث أن هناك نوعًا من الطيور يسمىٰ بالخياط يبني عشه من ورقتي شجر فيثقب حافتيها بمنقاره، ثم يستعمل الأعواد أو الأعشاب كخيط فيربطها به كما يفعل الخياط.

أما الإنسان : فإنه ذو حيلة وكف مهيئة للعمل فهي تغزل وتنسج،ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات عديدة :

- منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة.
- ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروبًا من الكسوة للصيف وضروبًا للشتاء فإن كسوة الصيف لاتليق بالشتاء وكسوة الشتاء لاتليق بالصيف فيتخذ لنفسه في كل فصل كسوة.
- ومنها أنه يجعلها تابعة لشهواته وإرادته.
- ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره كما جعلت مطاعمه كذلك فهو يتكسي مايشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحرير والإبريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هي في الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان فدل على أن ذلك أكمل وأجمل وأبلغ في النعمة.
- ومنها إرادة تمييزه عن الحيوان في ملبسه كما ميزه عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه.
- ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وحربه وسلمه وظعنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لاتليق إلا بها فلم يجعل كسوته في هذه الأحوال كلها واحدة لاسبيل إلى الاستبدال بها فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان.

وجـه الحيـوان

ثم تأمَّـل الحكمـة البـاهـرة في وجه الدابة كيف هو فإنك ترى العينين فيه شاخصتين أمامها لتبصر مابين يديها أتم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها

فتتقى أن تصدم حائطًا أو تتردى في حفرة فجعلت عيناها كعيني المتصب القامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقًا في أسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف إذ لو كان فوها في مقدم الخطم كما أنه من الإنسان في مقدم الذقن لما استطاعت أن تتناول به شيئًا من الأرض ألا ترى الإنسان لايتناول الطعام بفيه لكن بيده فلما لم تكن الدابة في تناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقًا من أسفله لتضعه على العلف ثم تقضمه، وأعينت بالجحفلة وهي له كالشفة للإنسان لتلتقم بها ماقرب منها ومابعد. وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة،فمنها إنه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها يواريهما ويسترهما ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وضر يجتمع عليه الذباب والبعوض فيؤذي الدابة فجعل أذنابها كالمذاب لها والمراوح تطرد به ذلك ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فإنه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة، وعسى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها إفهام الخلق ويزدريها السامع إذا عرضت عليه فإنه لايعرف موقعها إلا في وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تربض في الوحل فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها.

كثرة الحيــوانات

ثم تأمل حكمةً عجيبةً جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثرتها لايرى منها شيء وليست شيئًا قليلاً فتخفى لقلتها بل قد قيل إنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه في الصحاري من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور وضروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لاتكاد ترى منها شيئًا ميتًا لافي كنانه ولافي أوكاره ولافي مساقطه ولافي مراعيه بطرقه وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه إلا ماعدا عليه عاد إما افترسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن إحراز جسمه وإخفاء جيفته فدل ذلك على أنها إذا أحسَّت بالموت ولم تغلب على أنفسها

كمنت حيث لايوصل إلى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البين بها ولولا ذلك لامتلأت الصحاري بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها فعاد ضرر ذلك بالناس وكان سبيلاً إلى وقوع الوباء وقد دل على هذا قوله تعالى في قصة ابني آدم :

﴿فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾ .

وأما ماجعل عيشه بين الناس كالأنعام والدواب فلقدرة الإنسان على نقله واحتياله في دفع أذيته وليس مما جعل في الوحوش كالسباع فتأمَّل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعًا في البهائم وكيف تعلموه من الطير.

وتأمَّل الحكمة في إرسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذِّن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله تعالى وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه وهو من الطيور التي تنفر منها الأنس ومن نعيقها وتستوحش بها فأرسل إليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ وصار بمنزلة المتعلم والمستند ولاننكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال النبي ﷺ إذا بعثتم إليَّ بريدًا فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه وكان يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها واسم الرسول إذا جاء إليه، ولما جاءهم سهيل ابن عمرو يوم الحديبية قال قد سهل أمركم ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال لم يزل معنى اسمه فيه وفي ذريته، ولما سأل عمر بن الخطاب الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره أنه جمرة من شهاب وأن داره بالحرقة وأن مسكنه منها ذات لظى قال له : أدرك بيتك فقد احترق فكان كما قال. وشواهد هذا الباب أكثر من أن نذكرها هاهنا، وهذا باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الأسماء والمسميات وكثيراً ماأولع الناس قديمًا وحديثًا بنعيق الغراب واستدلالهم به على البين والاغتراب وينسبونه إلى الشؤم وينفرون منه وينفر منهم فكان جديرًا أن يرسل هذا الطائر إلى القاتل من ابني آدم دون غيره من الطيور، فكأنه صورة طائره الذي ألزمه في عنقه وطار عنه من عمله ولاتظن أن إرسال الغراب وقع اتفاقًا خاليًا من الحكمة، فإنك إذا خفي عليك وجه الحكمة فلا تنكرها واعلم أن خفاءها من لطفها وشرفها ولله تعالى فيما يخفي وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحمودة.

رحمـة الحيـوان

ثم تأمَّل أولاً ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها فلا تحتاج إلى الحمل والتربية كما تحتاج إليه أولاد الإنس، فمن أجل أنه ليس عند أمهـاتهـا ماعنـد أمهـات البشر من الـتربية والمـلاطفة والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالـولادة، ولـذلـك ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والفتخ يدرج ويلتقط حين يخرج من البيضة،وماكان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ماتمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها فتخبأه في أعز مكان فيها ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ولاتـزال بها كذلـك حتى ينهض الفرخ ويستقل بنفسه، وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة فإذا استقل بنفسه وأمكنه الـطيران لم يزل به الأبـوان يعـالجـانـه أتم معالجة وألطفها حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه ويأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولاعرفهما قط بل يطردانه عن الوكر وأقواتهما وبينهما ولايدعانه بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكرًا وقوتًا فلا وكر لك عندنا ولاقوت(١).

فسل المعطل-أهذا كله عن إلهام؟ ومن الذي ألهمها ذلك؟ ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ماكانت إليها ثم سلب ذلك عنها إذا استغنت

---

(١) كما أن عاطفة الأبوة عند البطريق تبدو واضحة عند أحد أنواعها المسمى بـ (الامبراطور) إلى الحد الذي يتخاصم فيه البطارق الذين لاأولاد لهم من أجل تبني طفل يبتسم.

ـ كما أن هناك نوعًا من الأوز عندما لاتجد ماتطعم به فراخها فإنها تعمد إلى بقر أحشائها بمنقارها لتقدمها لصغارها لتبقيهم على قيد الحياة وتضحي بحياتها.

الفراخ رحمة بالأمهات تسعى في مصالحها إذ لو دام لها ذلك لأضربها وشغلها عن معاشها لاسيما مع كثرة مايحتاج إليه أولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والإيثار والحنان ورحمة بالفراخ وسلبها إياها عند استغنائها رحمة بالأمهات، أفيجوز أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولاعناية ولالطف منه سبحانه وتعالى؟ لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها جحودًا إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور.

قال تعالى:

﴿أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾.

وإنما يكون الشك فيما يخفى أدلته وتشكل براهينه فأما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه الله الذي لاإله إلا هو رب العالمين فكيف يكون فيه شك.

الفيل[1]

ثم تأمل شفر الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فإنه يقوم له مقام اليد في تناول العلف والماء وإيرادهما إلى جوفه ولولا ذلك ماستطاع أن يتناول شيئًا من الأشياء من الأرض لأنه ليست له عنق يمده كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ليسد مسده وجعل قادرًا على سدله ورفعه وثنيه والتصرف به كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمل ماأراد إلى جوفه ويحبس فيه مايريد ويكيد به إذا شاء ويعطي ويتناول إذا أراد. فسل

---

(١) إذا اجتمع فيلان في مكانٍ ما ليأكلا فإنهما لايتعاركان بل على العكس يحيي الواحد منهما الآخر برفع خرطومه إلى أعلى. وبعد أن ينتهيا من تناول الطعام. يرفع كل منهما إحدى ساقيه الأماميتين وينحني لزميله. (عن كتاب غريزة أم تقدير إلهي).

المعطل من الذي عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذي منعه مايقوم له مقامه وينوب منابه غير الرؤوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم؟ كيف يتأتي ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيومه وبارئه ومبدعه وفاطره لا إله إلا هو العزيز الحكيم؟

(فإن قلت) فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام وماالحكمة في ذلك؟ قيل والله أعلم بحكمته في مصنوعاته لأن رأسه وأذنيه أمر هائل وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه ملصقًا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير للحكمة في ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ويوهن عنقه فسبحان من فاتت حكمه عدَّ العادين وحصر الحاصرين.

الزرافة[1]

ثم تأمَّل خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فرأسها رأس فرس، وعنقها عنق بعير، وأظلافها أظلاف بقرة، وجلدها جلد نمر، حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وذكروا أن أصنافًا من حيوان البر إذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المستوحشة على السائمة فتنتج مثل هذا الشخص الذي هو الملتقط من أناس شتى، وماأرى هذا القائل إلا كاذبًا عليها وعلى الخلقة، إذ ليس في الحيوان صنف يلقح صنفًا آخر فلا الجمل يلقح البقرة ولاالثور يقلح الناقة ولا الفرس يلقحها ولايلقحانه ولاالوحوش يلقح بعضها بعضًا ولاالطيور وإنما يقع هذا نادرًا فيما يتقارب كالبقر الوحشي والأهلي والضأن والمعز والفرس والحمار والذئب والضبع فيتولد من ذلك البغل والسبع.

(١) عندما تفاجأ الزرافة بخطر يهددها من احدى الوحوش الكاسرة فإنها تعمد إلى الدخول في أحراش مليئة بالشوك الذي لا يؤذيها بسبب قوائمها العالية وبهذا تكون قد نجت.

وقول الفقهاء هل تجب الزكاة في المتولد من الوحشي والأهلي؟ فلا وجود لذلك والأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر في الزكاة وجزاء الصيد والأضاحي والأحوط يتغلب في كل باب، ففي الأضاحي يتغلب عدم الإجزاء وفي الإحرام والحرم يتغلب وجوب الجزاء وفي الأطعمة يتغلب جانب التحريم وفي الزكاة اختلاف مشهور.

اختلاف المخلوقات من حكمة الباري

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزا على فرس فأحبلها فهل يكون لبن الفرس حلالا أو حرامًا؟ . فأجاب بأنه حلال ولاحكم للفحل في اللبن في هذا الموضع بخلاف الأناسي لأن لبن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحمها ولم يسر الوطء الفحل إلى هذا اللبن فإنه لاحرمة هناك تنتشر بخلاف لبن الفحل في الأناسي فإنه تنتشر به حرمة الرضاع ولاحرمة هنا تنتشر من جهة الفحل إلا إلى الولد خاصة فإنه يتكون منه ومن الأم فغلب عليه التحريم وأما اللبن فلم يتكون بوطئه وإنما تكون من العلف فلم يكن حرامًا. هذا بسط كلامه وتقريره.

والمقصود إبطال زعم أن هذه الحيوانات المختلفة يلقح بعضها بعضًا عند الموارد فتتكون الزرافة وأنه كاذب عليها وعلى الإبداع والذي يدل على كذبه أنه ليس الخارج من بين ماذكرنا من الفرس والحمار والذئب والضبع والضأن والمعز عضو من كل واحد من أبيه وأمه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون المتوسط بينهما الممتزج بهما كما نشاهده في البغل فإنك ترى رأسه وأذنبه وكفله وحوافره وسطًا بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد سجيحه كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا يدل على أن الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية ودلالة على قدرته وحكمته التي لايعجزها شيء ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفي أي لون شاء. فمنها المتشابه الخلقة المتناسب الأعضاء،

ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيئته تابع لها فمنه ماخلق من غير أب ولاأم وهو أبو النوع الإنساني. ومنه ماخلق من ذكر بلا أنثى وهي أمهم التي خلقت من ضلع آدم، ومنه ماخلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم، ومنه ماخلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الإنساني فيرى عباده آياته ويتعرف إليهم بآلائه وقدرته وأنه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

وأما طول عنق الزرافة ومالها فيه من المصلحة فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر المعتنون بحالها ومساكنها في غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولاً فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها وهذا ماوصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه.

الحيوان والحيل

ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيدًا تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتًا فيقع عليه ليأكل منه فيثب عليه الثعلب فيأخذه. ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريبًا منه يسكن مليًا حتى كأنه موات لاحراك فيه فإذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيبًا رقيقًا حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه.

ومن عجيب حيل العنكبوت(١) أنه ينسج تلك الشبكة شركًا للصيد ثم يكمن

---

(١) وهناك نوع من العناكب يحفر لنفسه حفرةً عمودية ويضع لها بابًا من لعابه الذي يستعمله مع الطين بحيث يصنع بابًا له عدة طبقات طبقة حريرية وطبقة طينية ثم يحفر مدخلاً سريًا داخل تلك الحفرة ويغطيها بباب آخر. فإذا ماهاجمه أحد دخل تلك الحفرة ثم دخل ذلك المدخل السري وأقفل بابها عليه فإذا مانظر العدو في الحفرة فإنه لا يجد شيئًا. فسبحان من علَّم الحيوان! وهناك نوع من السرطان يدعىٰ بـ «عنكبوت البحر» له أسلوبه في الاختفاء فهو أثناء سيره يلتقط مايصادفه من أشياء ويضعها على ظهره ليخفي نفسه، كما أنه إذا وضع في حوض مائي به اسفنج غطى نفسه بقطعة منه، وإذا نقل إلى حوض آخر به طحلب أخضر، نزع الإسفنج ووضع =

في جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب، وثب عليه وامتص دمه فهذا يحكي صيد الأشراك والشباك والأول يحكي صيد الكلاب والفهود ولاتزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقير والإزدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار فأنزل الله تعالى:

﴿إن الله لايستحي أن يضرب مثلاً مابعوضة فما فوقها﴾.

فما أغزرالحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته، فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ماسلبها من القوة والقدرة فأغناها ماأعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير؟.

الطيور تطير

ثم تأمَّل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قُدر بأن يكون طائرًا في الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعًا،ثم خلق ذا جؤجؤٍ محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه، كما يجعل صدر السفينة(*) بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران،وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله. ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعًا بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخُلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب ولايتعقف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وكان يزدرد الحب صحيحًا واللحم غريضًا أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ، والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن

= مكانه الطحلب، وإذا وضع في حوض ثالث به طحلب أحمر ألقى الطحلب الأخضر واستبدل به الآخر، كل هذا ليكتسب لون الوسط المحيط به. فمن علمه هذا.

* وكذا صدر الطائرة والصاروخ.

خلق الله جناح الطير بصورة يحار فيها عقول العقلاء إذ إنه جمع بين الخفة والصلابة والمرونة.

فقل لي بربك أي طائرة صنعها الإنسان ترتقي إلى هذا المستوى العالي من التصميم الهندسي.

في الصورة العليا ترى تيار الهواء المنساب فوق الجناحين وتحتهما

١ ـ ضغط هوائي خفيض.

٢ ـ ضغط هوائي زائد.

الإنسان صحيحًا وينطبخ في جوف الطائر حتى لايرى له أثر. ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضًا ولايلد ولادة لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران.
وتأمّل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعًا أو أسبوعين باختياره قاعدًا على بيضه[1] حاضنًا له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ليزق فراخه وليس بذي روية ولافكرة في عاقبة أمره ولايؤمل في فراخه مايؤمّل الإنسان في ولده من العون والرفد وبقاء الذكر. فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلةٍ لايعلمها هو ولايفكر فيها من دوام النسل وبقائه.

البيضة

ثم تأمّل خلقة البيضة ومافيها من المخ الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يغتذي منه إلى أن يخرج من البيضة ومافي ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشو الفرخ في تلك البشرة المنخفضة التي لانفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء مايكتفي به إلى خروجه.

---

(١) تنتظر الدجاجة ٢١ يومًا لحضانة البيض ولكن هذا لا يكفي، إذ أن الدجاجة بين يوم وآخر تقلب البيض ليتم نمو الجنين ولكي تفقس البيضة ولكي لا تنفجر العروق التي تتكون في الصوص في القسم السفلي من البيضة.
وماعلم الإنسان هذا إلا بعد أن قلد الدجاجة وقلب البيض ليحصل على الفراخ في محاضنه الصناعية، فسبحانه علم الحيوان الذي علم الإنسان.

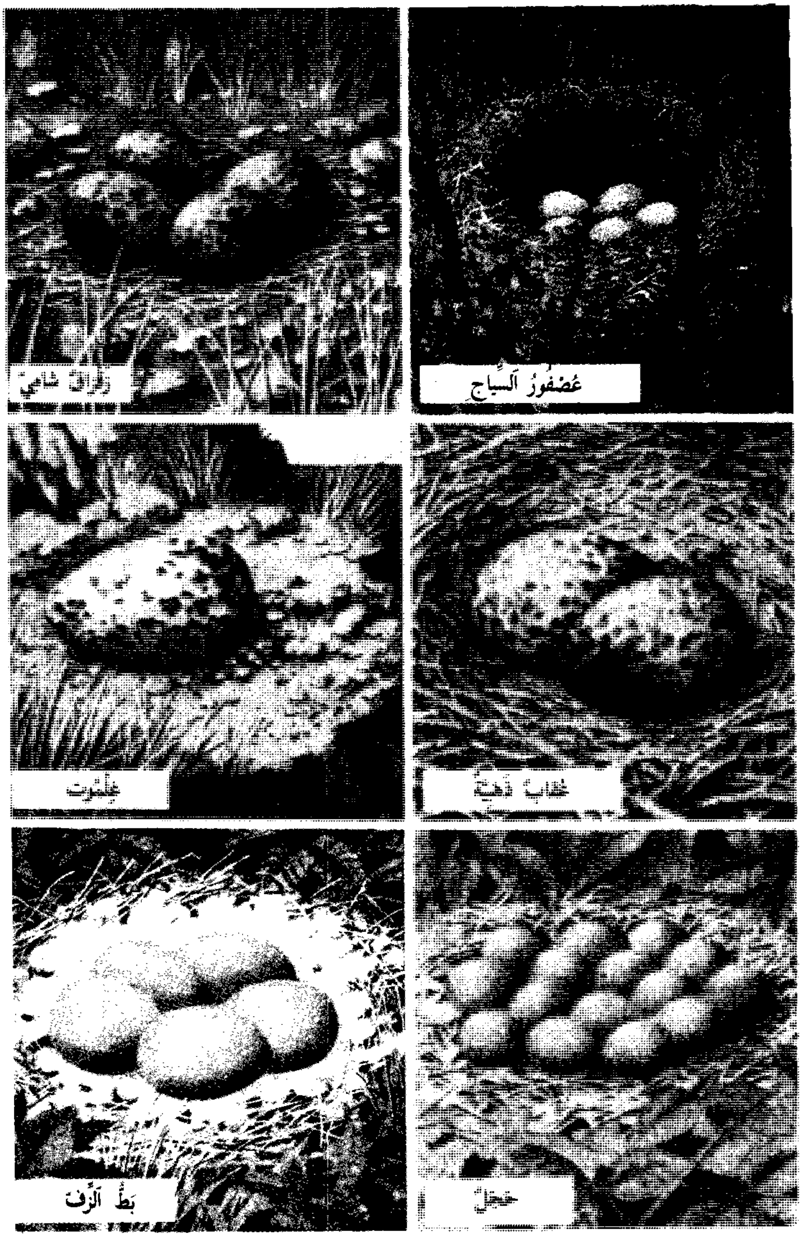

أنواع وألوان البيض للطير

إن اختلاف ألوان البيض ومجانستها للون للأرض التي حولها لتدل دلالة قاطعة أنها من صنع وتدبير عليم حكيم.

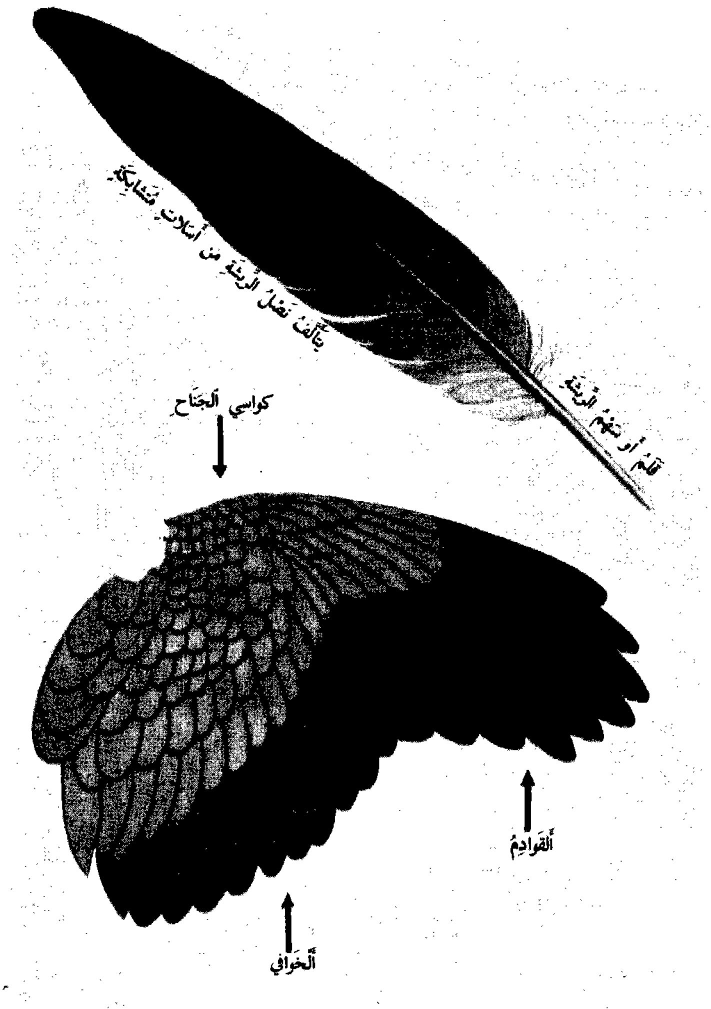

الريشة وشكل الجناح

اختلاف أنواع الريش على الجناح يجعل لكل وظيفة معينة فقسم للتوازن وهي الأطراف، وقسم للزيادة من الارتفاع، وقسم للمناورات المفاجئة، وهكذا، وقد يضطر الـطائر للتخلص من بعض ريشه وهو سابح في الهواء لزيادة توازنه وقد يفرش بعضها للتقليل من شدة الاضطرابات الهوائية.

حوصـلة الطائـر

وتـأمَّـل الحكمـة في حوصلة الطائر وماقدرت له فإن في مسلك الطعام إلى القابضة ضيق لاينفذ فيه الطعام إلا قليلاً فلو كان الطائر لايلتقط حبة ثانية حتى تصـل الأولى إلى جوفه لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفي طعامه وإنما يختلسه اختـلاسًـا لشـدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليودع فيها ماازدرد من الـطعم بسرعـة ثم ينقل إلى القابضة على مهل وفي الحوصلة أيضًا خصلة أخرى فإن من الطير مايحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب ليسهل عليه.

الريش[1] واختلاف الألوان في الطيور

ثم تأمَّل هذه الألوان والأصباغ والوشي التي تراها في كثير من الطير كالطاووس والدرّاج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هذا، فمن أين في الـطبيعـة المجـردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم؟

فتأمل ريش الطاووس كيف هو! فإنك تراه كنسيج الثوب الرفيع من خيوط رفـاع جدًا قد أُلِّف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط بل الشعرة إلى الشعرة ثم ترى النسيج إذا مددته ينفتح قليلاً قليلاً ولاينشق ليتداخله الهواء فينقل

---

(١) من قدرته سبحانه أن خلق البط في الماء لا يبتل ريشه والسبب في ذلك هو انتشار غدد دهنية حول منـابت الـريش والتي تقـوم بتـزييت ريش البطة. وأنت كثيرًا ماتشاهد بطة واقفة على الشـاطيء تصفف ريشها بمنقارها حيث إنها تعمد إلى الوصول بمنقارها إلى بعض الحبوب الدهنية القريبة من الذيل لتدلك به بعض الريش من بدنها.

الطائر إذا طار فترى في وسط الريشة عمودًا غليظًا متينًا قد نسج عليه ذلك الثوب التي كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته وهو القصبة التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء فيحمل الطائر، فأي طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللطف؟ ثم لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون لكانت من أدل الدلائل وأعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فإنه لم يكن ذلك لها من نفسها بل إنما هو لها ممن خلقها وأبدعها فما كذَّبه المعطل هو أحد البراهين والآيات التي على مثلها يزداد إيمان المؤمنين وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء.

طول الساقين لبعض الطيور

تأمَّل هذا الطائر الطويل الساقين[1] واعرف المنفعة في طول ساقيه فإنه يرعى أكثر مرعاه في ضحضاح الماء فتراه يركز على ساقيه كأنه دست فوق مركب ويتأمل مادب في الماء فإذا رأى شيئًا من حاجته خطا خطوا رفيقًا حتى يتناوله ولو كان قصير القائمتين كان إذا خطا نحو الصيد ليأخذه لصق بطنه بالماء فيثيره ويذعر الصيد منه فيفر، فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولايفسد عليه مطلبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق يمكنه تناول الطعم من الأرض ولو طال ساقاه وقصرت عنقه لم يمكنه أن يتناول شيئًا من الأرض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وإمكانًا.

(١) اللقلق ذو الساقين الطويلتين يطير شتاءًا من ألمانيا وهولندا والنمسا مسافة ٦ آلاف كيلو مترًا تقريبًا حتى أواسط أفريقية وجنوبها لكي يفتش عن الجراد طعامه المفضل. (فمن الذي هداه إلى ذلك عبر المسافات الطويلة جدًا؟).

طلب الرزق[1]

ثم تأمَّل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعًا معدًا بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي، فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ويفوتها إذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران والأسطحة والسقوف تتناوله بالهوينىٰ من السعي فلا يشاركها فيه غير بني جنسها من الطير، ولو كان ماتقتات به يوجد معدًا مجموعًا كله كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه وكذلك لو وجدته معدًا مجموعًا لأكبت عليه بحرص ورغبة فلا تقلع عنه وإن شبعت حتى تبشم وتهلك، وكذلك الناس لو جعل طعامهم معدًا لهم بغير سعي ولاتعب أدى ذلك إلى الشره والبطنة ولكثر الفساد وعمت الفواحش والبغي في الأرض فسبحان اللطيف الخبير الذي لم يخلق شيئًا سدى ولاعبثًا.

كثرة الحشرات

وانظر في هذه الطير التي لاتخرج إلا بالليل كالبوم والهام والخفاش فإن أقواتها هيئت لها في الجو لامن الحب ولامن اللحم بل من البعوض والفراش وأشباههما مبثوثة في الجو لايكاد يخلو منها موضع منه واعتبر ذلك بأن تضع سراجًا بالليل في سطح أو عرضة الدار فيجتمع عليه من هذا الضرب شيء كثير وهذا الضرب من

---

(١) الطيور تهاجر في طلب الرزق عبر القارات وتطير لأسابيع متوالية ويعجب الإنسان كيف ومتى تنام؟!
والجواب قد حصل عليه بعض العلماء الذين ثبتوا أجهزة دقيقة في بعض تلك الطيور فوجدوا أنها تنام بالتناوب مع المجموعة التي تليها أثناء الطيران لمدة عشر إلى خمس عشرة دقيقة، وتوجه نفسها أثناء نومها بصرخات المجموعة.

الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس في الطير أضعف منه ولاأجهل فيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه إذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها بمنزلة ليل غيرها ومع ذلك فساق لها الذي تكفل بأرزاق الخلق رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلا رزق مع ضعفها وعجزها وهذه إحدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب[1] والبعوض فكم فيها من رزق لأمة تسبح بحمد ربها ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار، فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وأن ذلك الذي تشاهده ليس باتفاق ولا بإهمال من سائر وجوه الأدلة التي لاتتمكن الفطر من جحدها أصلاً.

الخفاش

وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش فهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطيور وذوات الأربع وهو إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو أذنين ناشزتين وأسنان

---

(١) جمع جندب وهو نوع من الحشرات اسمه «النطاط» يستطيع أن يغير لونه ويتخذ لون الأرض التي حوله مباشرة.

* وهناك نوع آخر من الحشرات هي، أنثى الزنبور، قد سبقت الإنسان في صناعة الورق حيث أنها تجمع ألياف الأخشاب، وبعض المواد النباتية بفكيها القويتين، ثم تخرجها وتمزجها بسائل تفرزه بنفسها وتتركه ليجف فيصبح غشاءًا رقيقًا شبيهًا بورق اللف الأسمر الذي يستخدمه الإنسان في الحوانيت التجارية، ومن هذا الورق تبني أنثى الزنبور مسكنها. ولانعلم هل اليابانيون الذين يبنون بيوتهم من الورق قد أخذوا الفكرة منها أم لا؟!

ودبر وهو يلد ولدًا ويرضع ويمشي على أربع وكل هذه صفة ذوات الأربع وله جناحان يطير بهما مع الطيور، ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره فإذا غابت الشمس انتشر ومن ذلك سمي ضعيف البصر أخفش والخفش ضعف البصر ولما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التي لاتطير إلا بالليل. وقد زعم من تكلم في الحيوان أنه ليس يطعم شيئًا وإنما غذاؤه من النسيم البارد فقط وهذا كذب عليه وعلى الخلقة لأنه يبول، وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس لأنه بول غير مأكول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه على قولين هما روايتان عن أحمد وبعض الفقهاء لاينجس بوله بحال وهذا أقيس الأقوال إذ لانص فيه ولايصح قياسه على الأبوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق، وليس هذا موضع استيفاء الحجج في هذه المسئلة من الجانبين.
والمقصود أنه لو كان لايأكل شيئًا لم يكن له أسنان إذ لامعنى للأسنان في حق من لايأكل شيئًا ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الأكل لم يعط الأسنان فلما كبر واحتاج للغذاء أعين عليه بالأسنان التي تقطعه والأضراس التي تطحنه، وليس في الخليقة شيء مهمل ولاعن الحكمة بمعطل ولاشيء لامعنى له وأما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الأطباء في كتبهم ماانتهت إليه معرفتهم، حتى إن بوله يدخل في بعض الأكحال فإذا كان بوله الذي لايخطر بالبال فيه منفعة البتة فما الظن بجملته.

هداية الباري

ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقه أنه رأى رخلاً وهو طائر معروف قد عشش في شجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشة فاتحة فاها لتبتلعه فبينما هو يضطرب في حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة في العش فحملها فألقاها في فم الحية فلم تزل تلتوي حتى ماتت.

النمــل(١)

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة ومأأعطيته من الفطنة أو الحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنَّك ترى في ذلك عبراً وآيات فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له فإذا ظفرت به أخذت طريقًا من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سربًا ذاهبًا ورفقة خارجة من بيوتها إليه لاتخالط تلك في طريقها بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه فإذا كان الذي ظفر به منهن واحـدة ساعدها رفقتها عليه إلى بينها وخلوا بينها وبينه وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمته على باب البيت.

ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهن يوما عجباً..

قال: رأيت نملةً جاءت إلى شق جرادة فزاولتـه فلم تطق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل؛ قال:فرفعتُ ذلك الشق من الأرض،فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئًا فرجعن. فوضعته ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن،فرفعته فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئًا فذهبن،فوضعته فعـادت فجاءت بهن فرفعته،فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئًاوتحلَّقْن حلقة

(١) يتشابه النمل مع الإنسان في العادات حيث أنه يبني المدن ويشق الطرق ويحفر الأنفاق ويخزن الطعام ويزرع الحدائق والنباتات وهناك جيوش خاصة للحرب والدفاع وهناك أسرى ومحاكمات إلى غير ذلك..

كما أن هناك نوعا من النمل يسمىٰ بـ «الحلاّب» حيث يقوم باصطياد بعض أنـواع الـديدان والـيرقات ويربيها في أماكن ومزارع خاصة حيث يقوم بتعليفها وتربيتها ليأخذ منها مادة حلوة تسمى بـ «الندوة العسلية».

وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضواً عضواً وأنا أنظر.

ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعًا فإذا أصابه ندٌ وبللٌ وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها، ولهذا ترى في بعض الأحيان حبًا كثيرًا على أبواب مساكنها مكسرًا ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة، ومن فطنتها أنها لاتتخذ قريتها إلا على نشر من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل في بطن واد ولكن في أعلاه وماارتفع عن السبيل منه ويكفي في فطنتها مانص الله عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه السلام وجنوده قال تعالى:

﴿ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون﴾.

فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة.. النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنصر، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة. ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكًا منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولاتستبعد هذه الفطنة من أمةٍ من الأمم تسبح بحمد ربها كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قال: **«نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أحرق قرية النمل فأوحى الله إليه. من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة»**.

النحــل

ثم تأمَّل أحوال النحل ومافيها من العبر والآيات فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعًا فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولاخلل كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولابيكار وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما

قال تعالى :

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاءٌ للناس إن في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون﴾ .

فتأمَّل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال الشقف وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون أي يبنون العروش وهي البيوت فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة. وتأمَّل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم في الآية ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها ومما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدًا وتأمَّل كيف أدَّاها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولاً فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً ثم بالأكل بعد ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لايستوغر عليها شيء ترعى ثم تعود.

ومن عجيب شأنها أن لها أميراً يسمى إلى يعسوب لايتم لها رواح ولا إياب ولاعمل ولامرعى إلاّ به،فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة وله عليها تكليف وأمر ونهي وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولاتتقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولاتصادم ولاتراكم كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لايجوزه إلا واحد واحد. ومن تدبر أحوالها وسياساتها أو هدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان،فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلاً عما يصدر عنه من الأمور العجيبة.

ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لايجتمعان في بيت واحد ولايتآمران على جمع

أحد بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه واتفقوا على الأمير الواحد عن غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم البعض بل يصيرون يدًا واحدة وجندًا واحدًا.

صناعة العسـل وفوائـده

ومن أعجب أمـرها ما لايهتدي له أكثر الناس ولايعرفونه وهو النتاج الذي يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهي الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم إنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئًا منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتًا بيتًا وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيورًا بإذن الله وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفـطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج.

فســل المعطل من الذي أوحى إليها أمرها وجعل ماجعل في طباعها؟ ومن الذي سهل لها؟ سبله ذللاً منقادة لاتستعصي عليها ولاتستوعرها ولاتضل عنها على بعدها؟ ومن الذي هداها لشأنها؟ ومن الذي أنزل لها من الطل ماذا جنته رزته عسلاً صافيًا مختلفًا ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة؟ من بين أبيض يرى فيه الـوجه أعظم من رؤيته في المرأة وسمه لي من جاء به وقال:هذا أفخر مايعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها.

وإذا تأمَّلت مافيه من المنـافـع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية حتى كان المتقـدمـون لايعـرفـون السكـر ولاهو مذكور في كتبهم أصلاً وإنما كان الذي

يستعملونه في الأدوية هو العسل وهو المذكور في كتب القوم ولعمر الله إنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها وأذهب لضررها وأقوى للمعدة وأشد تفريحًا للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذًا للداء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر ولاكانوا يعرفونه أصلاً ولو عدم من العالم لما احتاج إليه ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعلموا أن من منافع العسل مافيه من الحدة والحرارة فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها فيصير أنفع له من السكر وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لاتمنع وبراهين كثيرة لاتدفع ومتى رأيت السكر يجلو بلغمًا ويذيب خلطًا أو يشفي من داء وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته.

شروط الشفاء بالعسل

وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيراً من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته ولاريب أن كونه شفاءًا وكون القرآن شفاءًا والصلاة شفاءًا وذكر الله والإقبال عليه شفاءًا أمر لايعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء وماأقل المستشفين به بل لايزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة ولايزيد الظالمين إلا خسارًا وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفى به من عليل وكم قد عُوفي به من مريض وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لاتبلغ قريبًا من مبلغه في الشفاء وأنت ترى كثيراً من الناس بل أكثرهم لانصيب لهم من الشفاء بذلك أصلاً ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة ذكرها في باب الصاد وذكر منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوهًا عديدة ومن منافعها في الروح والقلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب أضر ماعليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال:

ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها فإذا قويت عليه قهرته؟ فقال له الطبيب: بلى! فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظهرت بها يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام.

والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاءً لما وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى: **﴿يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾**.

فعمَّ الموعظة والشفاء وخُصَّ بالهدى والمعرفة فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاآن هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة، ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمرًا عجيبًا. وتأمل إخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن العسل **﴿فيه شفاء للناس﴾**. وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه[1].

اللبـن

ثم تأمَّل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام وماسقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم فتأمَّل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دمًا بإذن الله يسري في عروقها وأعضائها وشعورها ولحومها فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء، قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته ثم يبقى الدم في

(١) انظر في كتاب زاد المعاد المجلد الرابع لابن القيم، فصل في هدي النبي ﷺ في العلاج بشرب العسل والحجام والكي.

كأس اللبن تشربه وأنت تحمد الله وتتفكر كيف خرج هذا اللون الأبيض من ذلك الدم الأحمر القاني من ضرع الحيوان.

تلك الخزائن التي له إذ به قوام الحيوان ثم ينصَبُّ ثفله إلى الكرش فيصير زبلاً ثم ينقلب باقيه لبنًا صافيًا أبيض سائغًا للشاربين فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أُنهكت الشاة أو غيرها حلبًا خرج الدم مشوبًا بحمرة فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول فانفصل إلى الكبد وصار دمًا وكان مخلوطًا بالأخلاط الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة والطحال والكلية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم، فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير.

السمك(1)

ثم تأمَّل العبرة في السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه بالماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتج إليه لأنه ينغمس في الماء وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة وكسى جلده قشورًا متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر

---

(1) هناك نوع من الأسماك يدعى «الكهربي» حيث يصعق فريسته بشحنة كهربية حتى أنه يتحكم في قوة الصعقة الكهربية ويضيء لنفسه طريقًا في الظلام ويطفئها إذا أراد. بل أن هناك بعض (قبائل الهنود الحمر) كانت تستخدم هذا النوع من السمك في علاج حالات الروماتيزم وذلك باستخدام القوة الكهربائية الموجودة فيه.

مات فكما يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء فسبحان من لا يحصي العادون آياته ولايحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد بل إن علموا فيها وجهًا جهلوا منها أوجهًا.

فتأمَّل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلاً. ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى عدده (وحكمة ذلك) أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات الأجام جاثمة تعكف على الماء الصافي فإذا تعذَّر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسمك الكبار تأكله ودواب البر تأكله وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة، ولو رأى العبد مافي البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لايحصيها إلا الله ولايعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذي لانسبة له أصلاً إلى ماغاب عنهم لرأى العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لايعلمها إلا هو.

الجــراد

وهذا الجراد وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندًا لامرد له ولايحصى منه عدد ولاعدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلـك فانـظر كيف ينسـاب على الأرض كالسيل فيغشي السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته ويسد وجه السماء بأجنحته ويبلغ من الجو إلى حيث لايبلغ طائر أكبر جناحين منه. فسل المعطل من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لايستطيع أن يرد عن نفسه حيوانًا؟ رام أخذه بليلة عن العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه بل ينظرون إليه أنـه يستبـد بأقـواتهم دونهم ويمـزقهـا كل ممزق ويذر الأرض قفـرًا منهـا وهـم لايستطيعون أن يردوه ولايحولوا بينه وبينها وهذا من حكمته سبحانه أن يسلِّط الضعيف من خلقه الذي لامؤونة له على القوي فينتقم به منه وينزل به ماكان يحذره منه حتى لايستطيع لذلك ردًا ولاصرفًا.

حـــق المظلـــوم

قال الله تعالى:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكِّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون﴾.

فواحسرتاه على استقامةٍ مع الله وإيثارٍ لمرضاته في كل حالٍ يُمكَّن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه،كما أن المسؤول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه،ولو صدق السائل لما أفلح من رده وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها ولو أدوا مالله عليهم فيها لحفظها الله عليهم،وهذا أيضًا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآيات باهرة حتى إن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ماكسبت أيديهم ولولا ذلك لم يُسلَّط عليهم منها شيء.

ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدًا والله الموفق.

ويحكى (أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم فجعل يعجب فأتى في منامه فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك إنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلاً). فقس على هذه الحكاية ماتراه في نفسك وفي غيرك. تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وأنه قائم على كل نفس بما كسبت وأنه لايظلم مثقال ذرة.

وتأمَّل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه فصدهم عنه كما صدوا عباده صدًا بصد ومنعًا بمنع. وتأمَّل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها

عليهم وأتلفوها بالربا جوزوا إتلاقًا باتلاف فقل أن ترى مرابيًا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة.

سنة الله في الخلق

وتأمَّل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها. وتأمَّل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم فإن استقاموا استقامت ملوكهم وإن عدلوا عدلت عليهم وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم مالهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم وإن أخذوا ممن يستضعفونه مالا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الإلهية أن يولي على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم. ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شابت لهم الولاة فحكمة الله تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدرة ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولازمها قطع من الليل مظلم

الحكمة من مسخ الانسان إلى حيوان

وتأمَّل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى:

﴿وعادًا وثمود وقد تبيَّن لكم من مساكنهم﴾. إلى قوله: **﴿يظلمون﴾**.

وتأمَّل حكمته تعالى في مَسْخِ من مُسِخَ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها. ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق والذين لاعقول لهم بل هم أخف الناس عقولاً وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولاسيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الإنسان عن رجيعه فيبادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم ثم وَالَوْا كُلَّ عدوٍ لهم من النصارى واليهود والمشركين فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفَّار وصرَّحوا بأنهم خير منهم، فأي شبه ومناسبه أولى بهذا الضرب من الخنازير فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين. وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرًا فأكثر من أن تذكر هاهنا وقد أفرد لها الحافظ بن عبدالواحد المقدسي كتابًا.

وتأمَّل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا

أطول أعمارًا وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى رسوله فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع ماقتضاه في وقته.

الحكمة في إرسال الرسل

وتأمَّل حكمته تبارك وتعالى في إرسال الرسل في الأمم واحدًا بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبدالله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولاً ومعارف وأصحها أذهانًا وأغزرها علومًا وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه فأغنى الله الأمة بكمال رسولها وكمال شرعيته وكمال عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده وأقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولانبي ولامحدث ولهذا قال ﷺ إنه قد كان قبلكم في الأمم مُحدِّثون فإن يكن في أمتى أحد فعُمَرْ فجزم بوجود المحدثين في الأمم وعلَّق وجوده في أمته بحرف الشرط وليس هذا بنقصان في الأمة على من قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبلها فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لاتحتاج إلى محدِّث بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد لا أنه عمدة لأنها في غنى بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث. وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون. ولاتظن أن تخصيص عمر رضي الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق بل هذا من أقوى مناقب الصديق فلكمال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدي الرسالة استغنى بذلك عما تلقَّاه من تحديث أو غيره فالذي يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث.فتأمَّل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة وتأمَّل مافيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير وأن رسول الله ﷺ أكمل خلقه وأكملهم شريعة لأن أمته أكمل الأمم وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصواب وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الرابع

الطبيعة

قال تعالى:

وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ

محتوى الفصل الرابع

	الصفحة
خلق العالم	١٨٢
البحار	١٨٤
الأرض	١٨٧
الهواء	١٨٩
سكون الأرض	١٩٨
إختلاف التضاريس	١٩٩
الجبال	١٩٩
بطن الأرض	٢٠٦
الزلازل	٢٠٨
الهواء وفوائد الرياح	٢٠٨
الحر والبرد	٢١١
خلق النار	٢١٢
ندرة الذهب والفضة	٢١٣
تيسيره سبحانه النعم لعباده	٢١٥
توزيع المطر	٢١٧
خضرًا	٢١٨
توزيع الأقوات والثهار	٢٢٠
منافع النبات والشجر	٢٢٠
غذاء النبات	٢٢١
الجذور للشجر	٢٢٣
ورق الشجر	٢٢٤
فائدة الورق	٢٢٥
خلق النوى	٢٢٦
قشرة الثمرة	٢٢٨

خلق الرمان	٢٢٨
خلق البذور	٢٣٠
خلق الحبوب	٢٣٠
تقدير حمل الاشجار	٢٣٠
البطيخ	٢٣٤
اختلاف الثمار مع اختلاف الأوقات	٢٣٤
النخلة	٢٣٤
التمر والعنب أيهما أفضل	٢٤٠
الخشب	٢٤٢
العقاقير	٢٤٤
نبات الصحاري	٢٤٦

خلق العالم

قال ابن القيم :

تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمه على أحسن نظام وأدّلِة على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه. فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل مايحتاج إليه، فالسماء سقفه المرفوع عليه، والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمتنقل في طرق هذه الدار، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له، وضروب النبات مهيأ لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة والآلات ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه فلولا ماسلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم، وجعل الإنسان كالملك المخول في ذلك المتحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظم وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الإله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً،وإنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما. وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول وبداية الفطر، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدح صحيح أو يأتوا بأحسن منهما ولايعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ماتضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر وسنفرد إن شاء الله كتابًا مستقلاً لأدلة التوحيد.

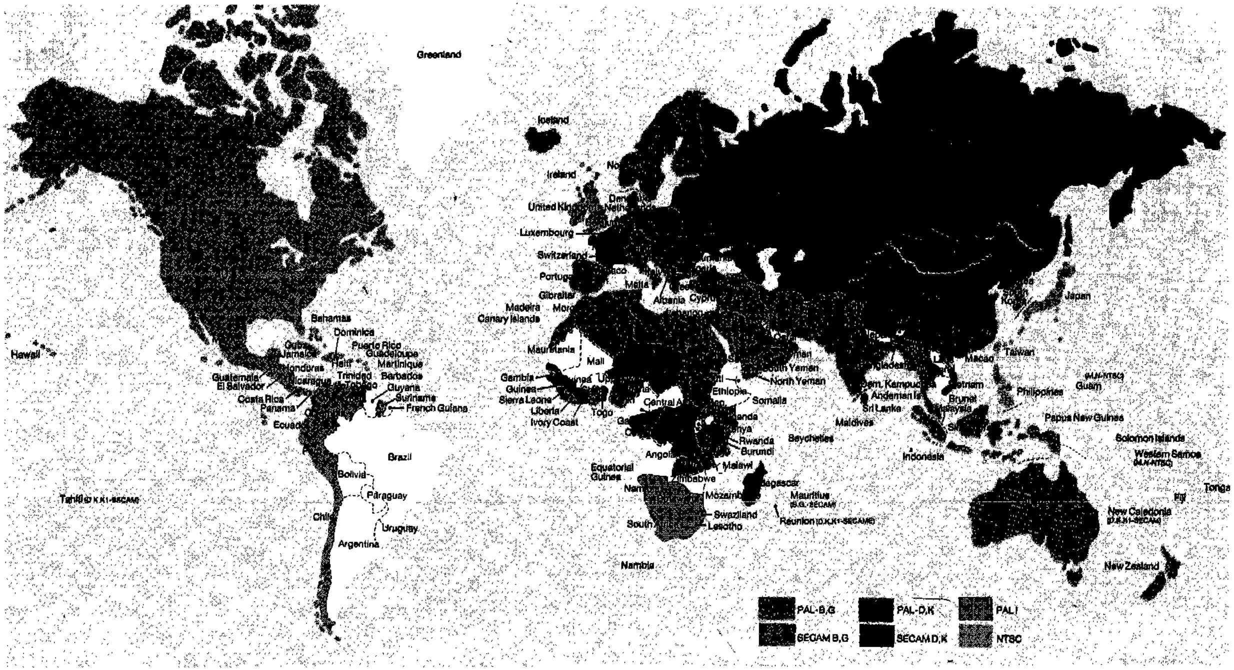

خريطة العالم

البحــار

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء، ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره ولم يجدوا مايحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك لعيش الحيوان الأرضي في الأرض وهذا حق ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة وإرادته ومشيئته وعلمه ورحمته وصفات كماله ولامحيص عنه.

وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: مامن يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم. وهذا أحد الأقوال في قوله عز وجل: ﴿**والبحر المسجور**﴾. أي المحبوس حكاه ابن عطية وغيره. قالوا ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض.

وإذا تأملت عجائب البحر ومافيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها حتى إن فيها حيوانًا أمثال الجبال لايقوم له شيء وحتى إن فيه من الحيوانات مايُرى ظهورها فيُظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها وفيها أجناس لايعهد لها نظير في البر أصلاً هذا مع مافيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤ كيف أودعت في كَنٍّ كالبيت لها وهي الصدفة تكنها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفة لم تمسه الأيدي وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع مافيه من

المحار له أشكال كثيرة جميلة الألوان

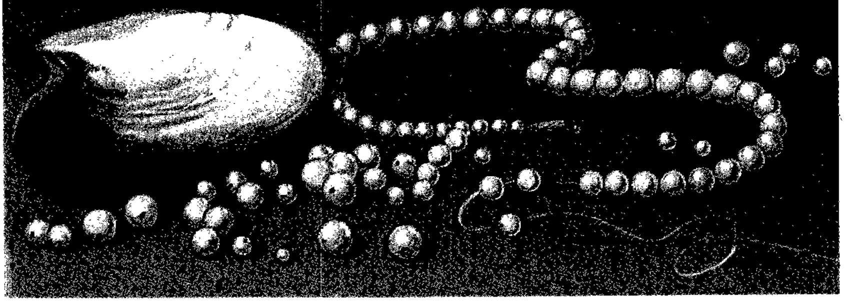

اللؤلؤ يخرج من المحار

العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه.

ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولاسائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائها فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء. قال الله تعالى:

﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾.

﴿الله الذي سخّر لكم البحر لتأكلوا منه لحمًا طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة! ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيراً وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه. قال الله تعالى:

﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾.

الأرض

وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتًا للأحياء تضعهم على ظهرها ماداموا أحياء وكفنًا للأموات تضعهم في بطنها إذا ماتوا فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها فقال تعالى:

﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾. ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارًا﴾. ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشًا﴾. ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾، ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾.

وهذا كثير في القرآن فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر بهيجًا للناظرين كريمًا للمتناولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية ومراعي الدواب والطير.

ثم انظر إلى قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماءًا واحدًا فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحد والأم واحدة كما قال تعالى:

﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم وكيف كان حملها

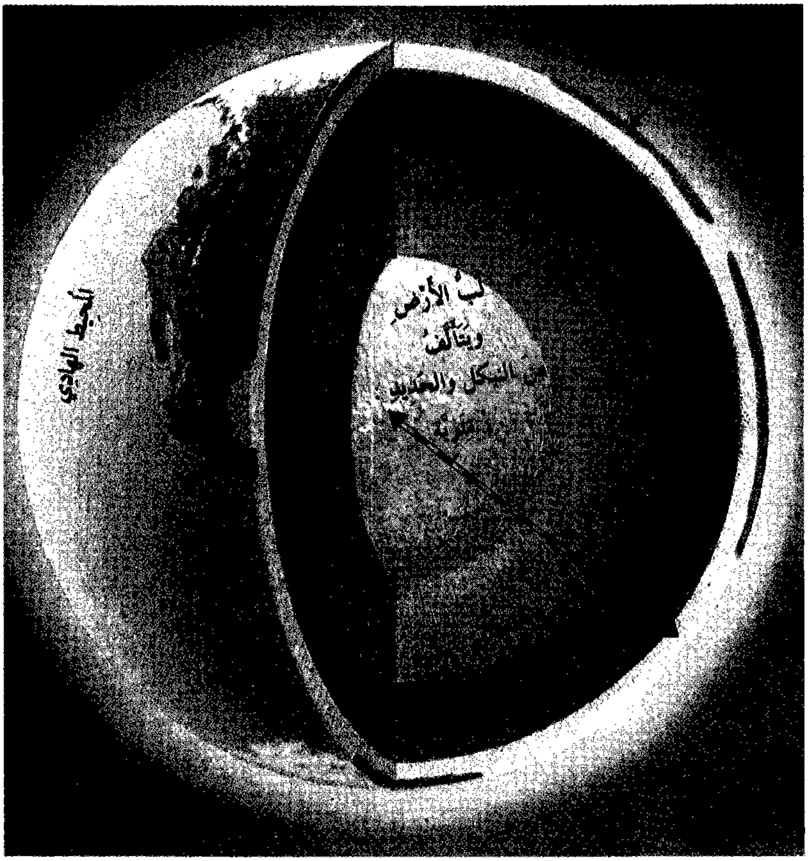

مقطع تشريحي لكوكب الأرض

ترى الحرارة الشديدة في باطنها حيث تصل الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة مئوية التي هي أحد الأسباب الرئيسية في الحياة على الأرض.

من لقاح واحد صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده وهداهم إلى التفكير فيه.

قال الله تعالى:

﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾.

فجعل النظر في هذه الآية وماقبلها من خلق الجنين دليلاً على هذه النتائج الخمس مستلزمًا للعلم بها.

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الأمطار والرياح بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ماأودعها ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلي والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شيء منه ولاقدرة عليه.

الهـــواء

ومن آيته الباهرة.. هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك بحس اللمس عند هبوبه يدرك جسمه ولايرى شخصه فهو يجري بين السماء والأرض والطير مختلفة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حركة بحركة الرحمة فجعله رخاءًا ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحًا لسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل وتسمى رياح الرحمة المبشرات والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر العقيم والصرصر وهما في البر وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا وأودعه عذابًا أليمًا وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه وهي مختلفة في مهابها فمنها

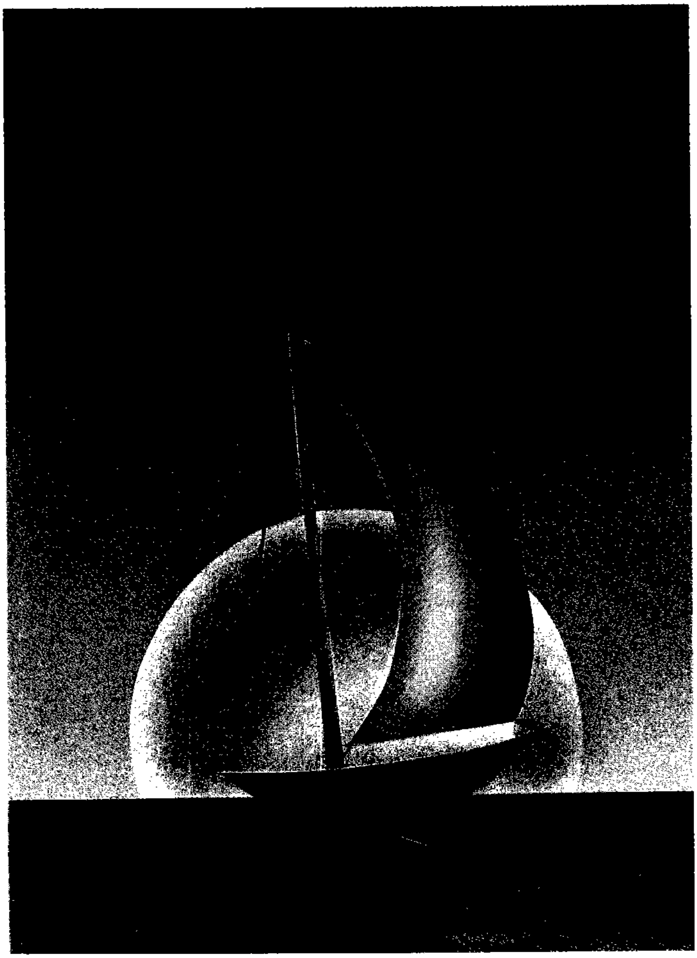

سفينة شراعية

صبا ودبور وجنوب وشمال في منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه. ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها ومايحدث منها. فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحمله على متونها وريح تغذي النبات. ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحًا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ويبقى لينها وراحتها فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فإنها ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ماترسل بإهلاكه فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي يقاومه شيء يدمر كل مأأتى عليه.

وتأمَّل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى:

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾

فإن السفن إنما تسير بالريح الواحد التي تأتي من وجه واحد فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لايعارضها شيء فأفردت هنا وجمعت في البر. ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس مايقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلاً وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوي الشديد وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ماتحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لايرسب فيه لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة، فتأمَّل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلَّق به حتى أمن من الغرق وهذا كالذي يهوي

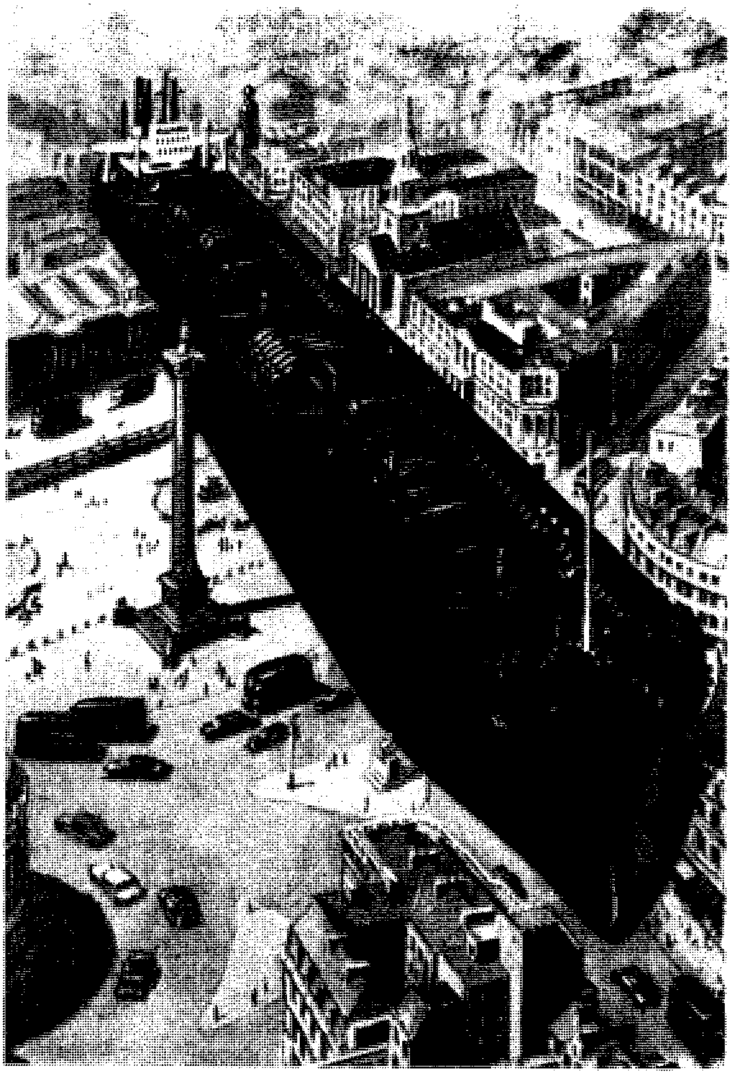

البحـار تحمل على ظهرها السفن الكبيرة المصنوعة من الخشب والحديد وهذه صورة أحد ناقلات النفط الضخمة التي يحملها البحر بكل سهولة انظر إلى عظم حجمها مقارنة بالمباني التي حولها.

في قليب فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع عن السقوط في القليب فينجو بتعلقه به فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولاعقدة تشاهد، قال تعالى: ﴿**ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾.

كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسيفًا ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ثم تلقحه الريح وهي التي سماها سبحانه لواقح ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه فإذا علاها واستوى عليها أهراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ماينزل عليه بجملته حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح. وفي الترمذي وغيره أن النبي ﷺ لَمَّا رأى السحاب، قال: «**هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قومٍ لايشكرونه ولايذكرونه**». فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التي عليها ميرتهم.

وكان الحسن إذا رأى السحاب قال في هذا والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم(١).

---

(١) لأن الماء هو أصل الحياة وقد قال الله سبحانه ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. وحينما يقول الإمام الحسن البصري أنه رزقكم فهو يعني (أنه الأصل في حياتكم) إذ أن الإنسان لايستطيع أن يستغني عن الماء أكثر من ثلاثة أيام.

*وأنت أيها الإنسان عبارة عن دولة هائلة تشتمل على ملايين من الخلايا، وبها طرق عديدة للمواصلات والتموين، وجيوش تحارب الدخلاء. وهذه الدولة تتصرف كوحدة في العلاقات الخارجية، أي حينما تتصيد فريسة لتأكلها ـ أو تحارب، أو تهرب من عدو خارجي، أو حينما تتجه مدفوعة بالطبيعة الكامنة فيها إلى ضمان استمرار الجنس. على أن كل فرد في داخل هذه الدولة عليه أن يقوم بواجبه في تعاون وارتباط، وعلى كل خلية أن تقوم بتغذية نفسها، وبما يتعلق بتنفسها واستمرار الحياة فيها. وهذه الدولة العجيبة يمكن القول بأنها دولة سابحة في الماء، فكل علاقة بين أفرادها تتم =

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: بينا رجل بفلاة من الأرض إذا سمع صوتًا في سحابة: إسق حديقة فلاق. فمرَّ الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة

=عن طريق الماء، وينتقل التموين إلى كل فرد فيها ذائبًا في الماء، ويلقي كل فرد فيها فضلاته ونفاياته في الماء.

والواقع أن أكثر من ستين في المائة من أجسامنا تتكون من الماء. ومع أن الماء في الجسم على اتصال وتبادل دائمين، الا أنه موزع توزيعا يحير الألباب: فالخلايا ـ التي هي أفراد دولة الجسم ـ تخزن أكثر من ثلاثين لترا من الماء، ثم يأتي دور الدم ـ وهو طريق المواصلات والتموين ـ فيحتفظ بقدر من الماء بين الدم والخلايا، لزيادته على حاجتها، فإذا ما سادت في الجسم عوامل الجفاف بسبب العطش أو فقد الجسم للماء نتيجة لافراز العرق أو الاسهال وما إليهما، أمدهما بما يعوضهما عن الماء الذي فقداه.

ويتم اختزان الماء في الجسم، وتوزيعه في أوعيته الثلاثة وفق نظام غاية في الدقة، فمن الكلى والجلد والرئتين والأمعاء يتألف جهاز مشترك للتخلص من الماء الفائض عن الحاجة، وتشرف على هذا الجهاز ـ في دقة تحير العقل ـ غدد صماء لعل أهمها الغدة النخامية والغدة فوق الكلوية (المسماة بالكظر) ـ والغدة الدرقية. وكمية الماء التي نشربها يتحكم فيها مقياس عصبي دقيق، هو شعورنا بالعطش. أما كمية الماء المدخرة في الجسم، فتتحكم فيها عناصر أخرى أهمها: أملاح الصودا والبوتاس والكالسيوم، ذلك لأن الجسم لا يقبل قط أن يختزن ماء قراحا، وإنما يختزن منه مافيه ملح ذائب. ومن هنا كان التحكم في هذه العناصر كفيلا بتحديد مقادير الماء التي يختزنها الجسم، وبتوزيعه بعدئذ على أوعيته الثلاثة.

ومن العجيب أن تركيب الدم في الإنسان والحيوان من حيث الماء والأملاح الذائبة فيه ـ يشبه إلى حد كبير تركيب ماء البحار. كأنما يحتفظ الحيوان في دمه ـ بذكريات النشأة الأولى ـ أي نشأة الحياة في البحر ـ قبل أن تنشأ على اليابسة!

ويقوم الزلال الموجود في بالدم بدور كبير في الاحتفاظ بالماء في الدم، فهو=

فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها. فإذا برجل معه مسحاة يسحى الماء بها فقال: ماأسمك ياعبدالله؟ قال: فلان للإسم الذي سمعه في السحابة.

= يجذب الماء إلى داخل الأوعية الدموية جذبا ـ ولو قل الزلال في الدم لتسرب الماء إلى خارج الأوعية ـ ووقف بالباب ـ بين الدم والخلايا ـ مما يسبب ورما في الجسم في كثير من الأمراض. وإلى ذلك يرجع تورم أجسام البشر في أيام الفاقة والمجاعات والحروب وما إليها.

ويتعرض الجسم لخطر داهم إذا فقد جانبًا كبيرًا من الماء ـ لسبب من الأسباب ـ ويبدأ هذا الخطر بأن يجف الماء المختزن فيما بين الدم والخلايا، ثم يجف الدم تدريجيًا، ثم تكون الطامة الكبرى إذ يبدأ جفاف الخلايا بعد ذلك، ويشعر المرء بعطش شديد، وبجفاف شديد، وبجفاف بالفم واللسان والجلد، وتغور العينان، ويصحب ذلك قيء يزيد الجسم جفافًا على جفاف.

وحينما كان الناس يتساقطون في بعض البلدان صرعى الكوليرا، لم يكن مكروب الكوليرا هو العامل القتال ـ إنما كان جفاف الجسم وفقدانه للماء، وكنت تستطيع أن ترى المعجزة تتم أمامك إذا شاهدت علاج أحد المصابين بإدخال إبرة صغيرة في جسمه تحمل إليه الماء والملح والحياة.

ولأهمية هذه الحالات ـ خصصت في بعض المستشفيات أقسام لضبط ميزان الماء في الجسم ـ ونشأ علم قائم بذاته في الطب هو **علم ميزان الماء**.

إن جسم الإنسان من حيث تركيبه، إذا زاد على حده ـ وهدد الجسم في تركيبه وكيانه ـ فهو سم قاتل له.. ولو أنه الماء الذي منه حياته!

والتسمم بالماء لا يحدث للجسم في الأحوال العادية، لأن مجموعة من الأعضاء والغدد تقوم على حراسته، ولكننا نراه في بعض الأحوال ـ عندما يأخذ الجسم قسطا من الماء كبيرًا ولا يأخذ منه مايكفيه من ملح الطعام ـ إذ ينتاب الإنسان صداع هائل، ويغيم نظره، ويندفع الجسم إلى التخلص من الماء بكل الوسائل ـ من لعاب يسيل ـ ومن قيء وإسهال، ودموع تسيل أيضًا! «**فسبحان من وضع ذلك الميزان في جسمك وجعله يعمل دون إرادة** =

وبالجملة فإذا تأمَّلت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جوٍ صافٍ لاكدورة فيه وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل الماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال مامعه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعًا بالقطرات كل قطرةٍ بقدر مخصوص، اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشًا ويرسله قطرات مفصلة لاتختلط قطرة منها بأخرى ولايتقدم متأخرها ولايتأخَّر متقدمها ولاتدرك القطرة صاحبتها فتمزج بها، بل تنـزل كل واحدةٍ في الطريق الذي رُسم لها لاتعْدِلُ عنه حتى تُصيبُ الأرض قطرة قطرة قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض لاتتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه. فتأمَّل كيف يسوقه سبحانه رزقًا للعباد والدواب والطير والـذر والنمـل يسـوقه رزقًا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا.

ثم كيف أودعه في الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات فهذا النبات يغذي، وهذا يصلح، وهذا ينفذه، وهذا يضعف، وهذا سُم قاتل، وهذا شفاء من السم، وهذا يمرض، وهذا دواء من المرض، وهذا يبرّد، وهذا يسخن،

= **منك**».

وقد يضطرب توزيع الماء في الجسم، وهذا لا يقل أهمية عن اضطراب كميته. وحينئذ قد تتورم الخلايا بالماء، ويضرب الجفاف أطنابه من حولها، وقـد يتلفها الجُفاف في حين أنها غرقى في الماء الواقف على أبوابها لكنه لا يستطيع لها عونًا.

وليس هنا مجال التوسع في هذه الأمور، ويكفي أن يعلم الإنسان كيف تتوقف حياته على قليل من الماء لا يساوي من متاع الدنيا شيئا، وأن يعلم إلى أي حد كان الله رحيمًا به إذا جعل الماء والهواء في متناول كل حي.

إن أغلى الأشياء طرا هو أكثرها وجودًا وأرخصها قال تعالى: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾.

وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق، وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال إليها، وهذا يدفع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل إليهما، وهذا يهيج الدم، وهذا يسكنه، وهذا ينوم، وهذا يمنع النوم، وهذا يفرح، وهذا يجلب الغم، إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لاتكاد تخلو ورقة منه ولاعرق ولاثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها.

سكـــون الأرض

ثم تأمَّل خلق الأرض على ماهي عليه حين خلقها واقفةً ساكنةً لتكون مهادًا ومستقرًا للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولاهدوءًا ولاثبت لهم عليها بناء ولاأمكنهم عليها صناعة ولاتجارة ولاحراثة ولامصلحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله تعالى:

﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾.

وقوله تعالى:

﴿الله الذي جعل لكم الأرض مهدًا﴾.

وفي القراءة الأخرى مهادًا.

وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبـال فقـالوا: يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال، قال: نعم الحديد، قالوا: يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد، قال: نعم النار، قالـوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار، قال: نعم الريح، قالوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح، قال: نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله**».

ثم تأمَّل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها فإنها لو أفرطت في اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولاحيوان ولاتمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولازرعها ولاشقها وفلحها ولاحفر عيونها ولاالبناء عليها فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ماجاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح.

اختلاف التضاريس

ثم تأمّل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب في البحر فكما أن الباني إذا رفع سطحًا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبًا للماء ولو جعله مستويًا لقام عليه الماء فأفسده، كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء واقفًا على وجه الأرض فمنع الناس الطرق والمسالك وأضر بالخلق أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء.

الجبال

ثم تأمّل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لاحاجة إليها وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع آلله أمرك بكذا قال: اللهم نعم.

فمن منافعها:

١ ـ أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاذه وجعل فيها ليذوب أولاً فأولاً فتجيء منه السيولة الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد والرُّبا وضروب النبات والفواكة والأدوية التي لايكون مثلها في السهل والرمل فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحلّ جملةً وساح دفعةً فعدم وقت الحاجة إليه وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه فيضر بالناس ضررًا لايمكن تلافيه ولادفعه لأذيته.

٢ ـ ومن منافعها مايكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع وهي أيضًا أكنان للناس والحيوان.

٣ ـ ومن منافعها مايُنحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية[1]

(١) جمع رحى.

اختـلاف التضـاريس من نعم الله حيث تبدو الجبال والأنهار والسهول فتسيل الأنهار من أعالي قمم الجبال إلى بطون الأودية والوهاد لتصب في البحر.

قال تعالى : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾

وغيرها.

٤ ـ ومن منافعها مايوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأصناف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى إن فيها مايكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة وفيها من المنافع مالايعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه.

٥ ـ ومن منافعها أيضًا أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ماتحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

٦ ـ ومن منافعها أيضًا أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

٧ ـ ومن منافعها أنها أعلام قال الله تعالى:

﴿ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام﴾.

فالجواري هي السفن والأعلام الجبال واحدها علم، قالت الخنساء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علمٌ في رأسه نار

فسمى الجبل علمًا من العلامة والظهور.

٨ ـ ومن منافعها أيضًا ماينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لاتكون في السهول والرمال كما أن ماينبت في السهول والرمال لاينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لايحيط به إلا الخلاق العليم.

٩ ـ ومن منافعها أنها تكون حصونًا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

١٠ ـ ومن منافعها ماذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها للأرض أوتادًا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن وأعظم بها من منفعة وحكمة، هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل

البركان وهو عبارة عن تدفق حمم من باطن الأرض المصهور الشديد الحرارة وهو أحد الأسباب في تكوين الجبال.

ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه.

ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيا وفي كيفية خلقها فقال:

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت﴾.

فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته، هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته[٢] وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه[٢] إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه[١] ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم. ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفوة عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذي جاءوا من كل فج عميق وقوفاً لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته شعثاً غبراً حاسرين عن رؤوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة فلله ذاك الجبل وماينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام، ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يناجي فيه ربه حتى أكرمه الله برسالته وهو في غارة فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالاً هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهي تهوى إليها

---

(١) وهو جبل أحد، كما قال عنه رسول الله ﷺ: **«هذا جبل يحبنا ونحبه».**

(٢) قال تعالى: **﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾**. البقرة

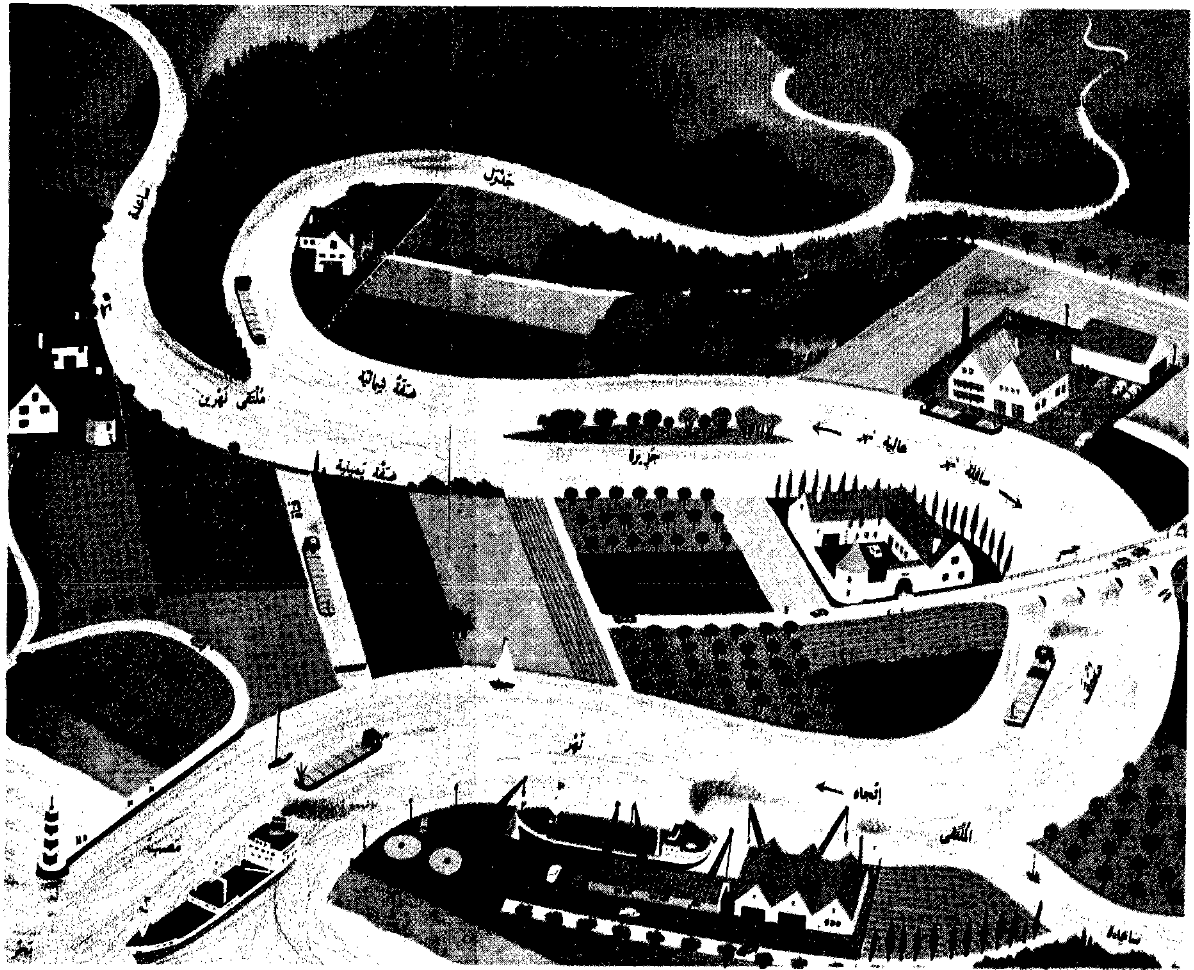

يسوق الله الماء إلى الناس بواسطة الأنهار والجداول.

كلما ذكرتها وتهفو نحوها، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول في الأرض بينهم.

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا:

خذ ماتراه ودع شيئًا سمعت به في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

هذا وإنها لتعلم أن لها موعدًا يومًا تنسف فيها نسفاً وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له، وكانت أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: أسمعت الجبال ماوعدها ربها فيقال: ماأسمعها فتقول:

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا لاترى فيها عوجًا ولاأمتا﴾.

فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله، فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولاتخشع ولاتنيب فليس بمستنكر على الله عز وجل ولايخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يُلِنْ لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

بطـن الأرض

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعروالجبال والرمل لينتفع بكل ذلك في وجهه ويحصل منه ماخلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف

مناطق الزلازل في العالم حسب دراسة الجغرافيين ولكنها لاتحدث إلا بإذن ربها جل وعلا .

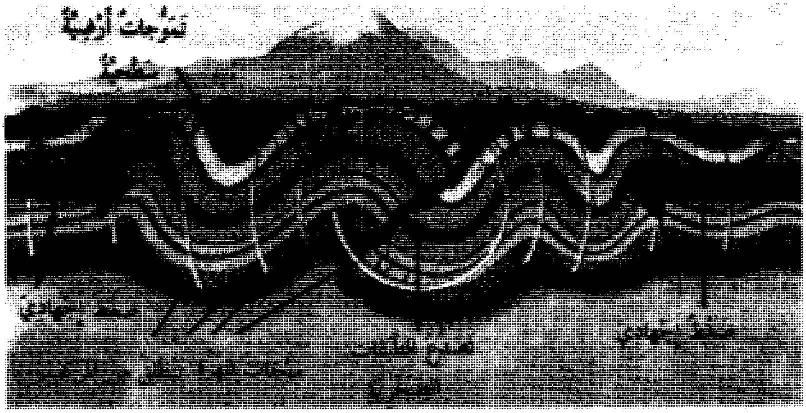

كيفية حدوث الزلزال وأثره على طبقات الأرض الصخرية .

حتى تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ماأذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإمـا بدونه ثم يرد إليها ماخرج منها وجعلها سبحانه كفاتًا فأحياء ماداموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتًا لهم تضمُّهم على ظهرها أحياءً وفي بطنها أمواتًا فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقولُ:ربِّ هذا ماستودعتني.وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدِّث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خيرٍ وشر.

الـزلازل

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل في تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها في الأحيان بالتنفس فتحدُثُ فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض:إن ربكم يستعتبكم! وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال: لئن عادت لاأساكنكم فيها.

الهـواء وفوائـد الريـاح

ثم تأمَّل هذا الهواء[1] ومافيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهرًا وباطنًا وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل هذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضـع إلى موضع فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك تأتيه

(١) قال العلماء ولو أن الهواء أصبح سائلاً لغطى الكرة الارضية إلى عمق عشرة امتار ونصف تقريباً.

الهـواء ومكوناتـه

لو كان الهواء* أرفع كثيراً مما هو، فإن بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية. وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

* والهواء التي نتنفسه مكون من الأكسجين ـ النتروجين ـ ثاني أكسيد الكربون =

= الأرجون ـ النيون ـ الكريبتون ـ والكنسيون.

فالأكسجين يكون: -٢١٪ من الهواء.

- وهو يكون مركبات في القشرة الأرضية.
- ويكون ٨٠٪ من مياه العالم.
- ولو زادت نسبته إلى ٥٠٪ مثلاً لاحترقت كثير من الكائنات.
- ولو نقصت إلى ١٠٪ لماتت جميع الأحياء.

وثاني أكسيد الكربون: يكون ۰۰۰۳, من الهواء وهو ثقيل لايتم فصله من الأكسجين إلا بصعوبة.

والنبات في ضوء الشمس يستطيع فصل الأكسجين عن الكربون في عملية التمثيل الضوئي، فيطرد الأكسجين إلى الهواء ويحتفظ بالكربون الذي يدمجه مع هيدروجين الماء الذي يمتصه جذوره ليصنع بإذن ربه سكرًا أو سليولوزًا ومواد أخرىٰ التي نحن نراها على شكل فاكهة أو خضارًا أو أزهارًا. فقل لي بربك من الذي أمره بهذا؟!.

والنيتروجين:

يكون ٧٨٪ من الهواء وهو صعب الذوبان.

حيث يحد من نسبة زيادة الأكسجين.

وبدون النيتروجين لايتكون غذاء على وجه الأرض إذ أنه لازم لغذاء النبات والحيوان فضلاً عن الإنسان.

وهناك طريقتان لذوبان ذلك المركب:

١ - بواسطة البكتريا التي في الأرض والنبات التي تأخذه من الهواء وتحوله إلى مركب نيتروجين،ثم حين تموت تتركه في الأرض ذائبًا.

٢ - بواسطة عواصف الرعد وضوء البرق اللامع الذي يجعله يتحد مع الأكسجين في الهواء ثم ينزل على شكل أمطار ليذوب في الأرض،ولذلك فإن مياه الأمطار هي أنفع المياه للزراعة لأن بها النيتروجين اللازم لها.

الغازات الخاملة مثل: الكريبتون، الأرجون، النيون، الكنسيون.

الأصوات وهو أيضًا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات وتأمّن منفعة الريح ومايجري له في البر والبحر وماهيئت له من الرحمة.

ثم تأمَّل الممسك للسموات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض مافيهما، أفترى من الممسك لذلك؟ ومن القيم بأمره؟ ومن المقيم له؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة[1] من كان يصلحه وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض والشمس فجعل عليهم الليل سرمدًا، من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار؟ ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فمن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم عليهم ويأتيهم بالليل؟ ولو أن السماء والأرض زالتا فمن ذا الذي كان يمسكها من بعده؟.

الحر والبرد

ثم تأمَّل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما وفكِّرْ في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته، ولو دخل عليه مفاجأة لأضرَّ ذلك بالأبدان والنبات وأهلكها كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك. فإن قلت هذا التدريج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها. قيل لك: فما السبب في ذلك الانخفاض والارتفاع؟ فإن قلت السبب في ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها، قيل لك: فما السبب في بعد المسافة؟ ولاتزال المسألة متوجهة عليك كلما عينت سببًا حتى تفضي بك إلى أحد أمرين، إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك اتفاق من غير مدبر ولاصانع، وإما الاعتراف برب العالمين، والإقرار بقيوم السموات والأرضين، والدخول في زمرة أولي العقل من العالمين، ولن تجد بين القسمين واسطة أبدًا فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين والله متم نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) يقصد بذلك الغلاف الجوي المكون من ذرات الهواء والتي تعكس ضوء الشمس والقمر والنجوم.

خلق النار

ثم تأمَّل الحكمة في خلق النار على ماهي عليه من الكون والظهور فإنها لو كانت ظاهرة أبدًا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لاتظهر أبدًا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلايزال حابسها مااحتاج إلى بقائها فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فسقطت المؤونة والمضرة ببقائها، فسبحان من سخَّرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر، قال تعالى:

﴿أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعًا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم﴾.

فسبحان ربنا العظيم لقد تعرَّف إلينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعًا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفي والأنس وغير ذلك.

ثم تأمَّل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلا حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لايستعملها ولايتمتع بها، وتنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ماشاءوا من ليلهم ولو عدمت هذه الخلة لكان الناس نصف أعمالهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفًا في ظلمة الليل الداجي؟ وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك؟ ثم

انظر إلى ذلك النور المحول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ماحولك كله، فترى به القريب والبعيد، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لايفنى ولاينفذ ولايضعف! وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف مالا ينتفع إلا بجفافه وتحليل مالا ينتفع إلا بتحليله وعقد مالا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى، ثم تأمّل ماأعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً فمن أعطى هذه القوة التي يطلبها بها الهبوط إلى مستقرة وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم.

ندرة الذهب والفضة

ثم تأمّل حكمة الله عز وجل في عزة هذين النقدين الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله إياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم في ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكنوا أن يصنعوا مثل ماخلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة في الناس حتى صارا كالسعف والفخار وكانت تتعطل المصلحة التي وضعا لأجلها وكانت كثرتهما جدًا سبب تعطل الانتفاع بهما فإنه لايخفى لهما قيمة ويبطل كونهما قيمًا لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ولم يتسخر بعض الناس لبعض إذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتهانها في الصنائع التي لاقوام للعالم إلا بها؟ فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لايوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما أو أنبتهما في العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده.

وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الأنباري قال أخبرني بعض من تداول المعادن (أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجري متصلبًا بماء غزير لايدرك

بعض أنواع المعادن التي أودعها الله سبحانه وتعالى ليستعملها الإنسان في أمور حياته.

ولاحيلة في عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون مايعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولاعرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين) . وهذا أحد مايدل على بطلان صناعة الكيمياء وأنها عند التحقيق زغل وصبغة لاغير وقد ذكرنا بطلانها وبينا فسادها من أربعين وجهًا في رسالة مفردة، والمقصود أن حكمة الله تعالى اقتضت عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس. واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الأمتعة كان نفيسًا عزيزًا مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فإذا فشى وكثر في أيدي الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه.

ومن هذا قول القائل نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه.

تيسيره سبحانه النعم لعباده

وتأمَّل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ماهم أحوج إليه وتوسيعه وبذله، فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع، وكلما استغنوا عنه كان أقل، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده فلم يكن بالعام ولابالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار، وتأمَّل سعة ماخلق الله منها وكثرته. فتأمَّل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر ولايمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لايستغني عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد، فتأمَّل حكمة ربك في أن سخَّر له الرياح فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحبًا أو ضبابًا فأذهبت عن العالم شره وأذاه فسل الجاحد من الذي دبَّر هذا التدبير وقدَّر هذا التقدير؟ وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابًا أو ضبابًا أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم؟ ولو شاء ربك تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ماعليها من الحيوان والناس.

حيثما كان يبلغ عن وجود مثل هذه اللقطات والشذرات الذهبية كان الناس يهرعون زرافات ووحدانا في طلبها!

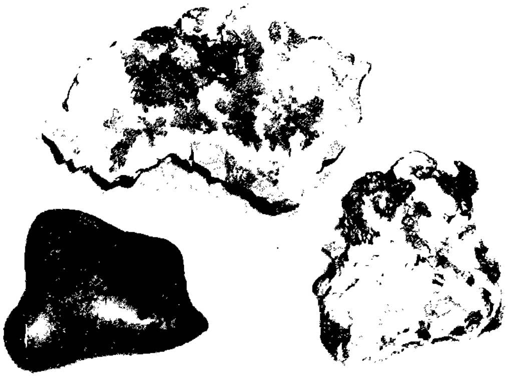

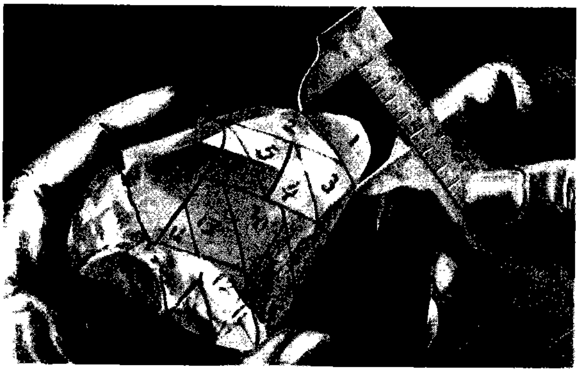

قطعة ماسية وزنها ٧٢٦ قيراطًا (حوالي ١٤٥ غم) بين يدي الخبير، الحزوز تشير إلى مواضع القطع في اتجاه التجزع الطبيعي للماسة.

توزيـع المطــر

ثم تأمَّل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها، ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر وفي ذلك فساد، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشيء سبحانه السحاب وهي روايا الأرض، ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى، ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب:

شربن بماء البحـر ثم ترفعت ... متـى لجج خضر لهنَّ نئـيج

وفي المـوطـأ مرفوعًا وهو أحد الأحاديث الأربعة المقطوعة إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة فالله سبحانه ينشيء الماء في السحاب إنشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التي ذكرناها،ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريًا على ظهرهـا لم يحصل عموم السقي إلا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فَصَاَعَدَهُ سبحانه إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية من اللطف والحكمة التي لااقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض.

ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبها بالصحو فهما. . أعني (الصحـو والغيم) يعتقبـان على العـالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فسـاده، فلو توالت الأمـطار، لأهلكت ماعـلى الأرض ولو زادت على الحاجة لأفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضروات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظُمَ الضررُ واحتدم الهواء فيبس ماعلى الأرض وجفت الأبدان وغلب

اليبس وأحدث ذلك ضروبًا من الأمراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح .

خضرا(1)

قال الله تعالى :

﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء﴾ .

وقال تعالى :

﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنَّى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر

---

(1) جهلت البشرية طويلاً كيف تتكون الحبوب والثمار بل كيف تتكون الأجزاء المختلفة في النباتات. وأخذ المفكرون يدرسون في هذا العصر كيف يكوِّن النبات حبوبه وثماره علَّنا نقدر على محاكاته، ونصنع طعامًا كما يصنع؟ فأخذوا يدرسون الثمار والحبوب لتأخذ بأيديهم إلى السر الخفي، حتى وصلوا إلى نتيجة تعرف باسم (التمثيل الكلوروفيلي)، أو التمثيل الضوئي. حيث وجدوا أن في النبات مصانع خضراء صغيرة (بلاستيدات خضراء) هي التي تعطي النبات لونه الأخضر. وأن هذه المصانع منها تخرج المواد الغذائية التي تكون منها الحبوب والثمار بل وسائر أجزاء النباتات.

وهذه المصانع الخضراء أيضًا تخرج من النباتات عند بدء نموه والنبات يخرجه الماء من بذوره وأصوله. وهذا عين مانجد في الآية الكريمة:

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لأيات لقوم يؤمنون﴾. [الأنعام: ٩٩].

٣ ـ فأخرجنا منه خضرًا.
١ ـ وهو الذي أنزل من السماء ماءً
٤ ـ نخرج منه حبًا متراكبًا
٢ ـ فأخرجنا به نبات كل شيء
البلاستيدات
الخضراء
ما أسماه القرآن (خضرًا)

والبحر قد فصَّلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًا متراكبًا ومن النخل طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾.

فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه، يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت، لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهي آيات لقوم يؤمنون، وقال بعض السلف حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا إليها ثم تلا:

﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾.

ولو أردنا أن نستوعب مافي آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنه الله الذي لا إله إلا هو الذي ليس كمثله شيء وأنه الذي لا أعظم منه وأكمل منه ولا أبر ولاألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك، ولكن مالا يدرك جميعه لاينبغي ترك التنبيه على بعض مايستدل به على ذلك وهذا حين الشروع في الفصول.

توزيع الأقوات والثمار

ثم تأمَّل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئًا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة، فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها، فإن كل فصل وأوان يقتضي من الفواكه والنبات غير مايقتضيه الفصل الآخر فهذا حارٌ وهذا معتدل وكل في فصله موافق المصلحة لايليق به غير ماخلق فيه.

منافع النبات والشجر

ثم إنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع أخر من العصف والخشب

والورق والنور والسعف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الأبنية والسفن والرحال والأواني وغيرها،ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يسر الناظرين وحسن مرائي الشجر وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف. ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها ومنافعها ومايراد منها ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفائقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة؟ فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وإبرازه وترتيبه شيئًا فشيئًا وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجاري الدقاق؟. فمن الذي تولى ذلك كله ومن الذي أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات؟.

غذاء النبات[١]

وتأمَّل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولاحركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر كل له شرب معلوم

(١) كان الناس جميعًا يجهلون الاختلاف في تكوين النباتات المختلفة حتى تقدمت العلوم في هذا العصر وكشفت أن جميع النباتات تتكون من مواد أساسية واحدة (كربون ـ أكسجين ـ أيدروجين ـ نتروجين، كبريت أو فسفور وبعض المواد الضئيلة الأخرى)،غير أن سبب اختلافها يرجع إلى اختلاف أو زان المواد في كل منها، وأن جذر كل نبات لايمتص من مواد الأرض إلا مقادير موزونة محددة. وبهذا نطق الكتاب. قال تعالى: ﴿**وأنبتنا فيها من كل شيء موزون**﴾. (الحجر: ١٩).

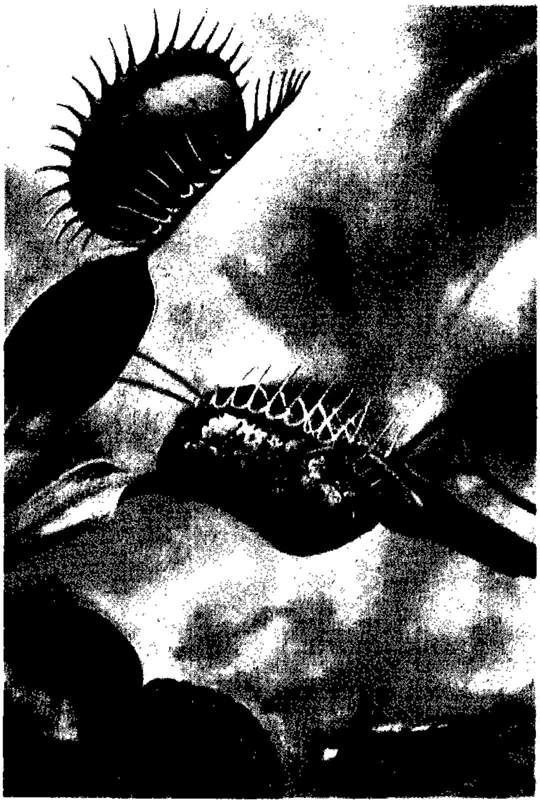

خناق الذباب

ليست كل النباتات تتغذى على المواد المذابة في التربة فقط بل هناك ما يتغذى على الحشرات كما هو مبين في الصورة (نبات خناق الذباب وقد اقتنص حشرة).

لايتعداه يصل إليه في مجار وطرق قد أحكمت غاية الإحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلتقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب مايحتاج إليه لاتظلمه ولاتزيده على قدر حاجته.

فسل الجاحد من أعطاها هذا ومن هداها إليه ووضعه فيها؟ فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة أو حيلة أو مزاولة؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعات ودلت عليه آياته كما قيل:

فواعجبا كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة	وتسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

الجذور للشجر

ثم تأمَّل إذا نصبت خيمة أو فسطاطًا كيف تمده من كل جانب بالأطناب ليثبت فلا يسقط ولايتعوج. هكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة في الأرض منتشرة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت أعاليه امتدت عروقه وأطنابه من أسفل في الجهات. ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف. وتأمَّل سبق الخلق الإلهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقه للشجر والنبات لأن عروقها أطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفساطيط ثم يحاكي بها الشجرة.

ورق الشجـر

ثم تأمَّل الحكمة في خلق الورق فإنك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها مايبهر الناظر فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجًا دقيقًا معجبًا لو كان يتولى البشر صنع

وَمَاتَسۡقُطُ مِن وَرَقَ

(سُورة الانعام الآية ٥٩)

مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل ولاحتاجوا فيه إلا آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك مايملأ الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولامعين ولامعالجة إن هي إلا إرادته النافذة في كل شيء وقدرته التي لايمتنع منها شيء.

قال تعالى:

﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾.

فتأمَّل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه، وتأمَّل مافي العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق.

فائدة الورق

ثم تأمَّل حكمة اللطيف الخبير في كونها جُعِلت زينةً للشجر وسترًا ولباسًا للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها، ولهذا إذا جُرِّدت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها. وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فإذا ذهبت الثمرة بقى الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسي لباسًا جديدًا أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج ورقة إلا بإذنه ولاتسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرًا ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى. قال تعالى:

﴿وماتسقط من ورقة إلا يعلمها﴾، ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾.

فالنجم ماليس له ساق من النبات والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده.

﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا﴾.

ولعلك أن تكون ممن غَلُظَ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر[1]. وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاة وتأويبًا وهبوطًا من خشيته كما ذكر تعالى ذلك في كتابه فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى:

﴿والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾.

أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالته عليه وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا وفرق بينهما وعطف أحدهما على الآخر وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله:

﴿ياجبال أوبي معه﴾.

وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشي والإشراق أفترى دلالتها على صانعها أنما يكون في هذين الوقتين؟ وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلاً على بطلانه والحمد لله.

خلق النوى

ثم تأمَّل حكمته سبحانه في إبداع العجم والنوى في جوف الثمرة ومافي ذلك من الحكم والفوائد التي منها كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع إليها الفساد فهو بمنزلة العظم والثمرة بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله عز وجل العظام. ومنها أن في ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها مايقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلها. ومنها مافي تلك الحبوب من أقوات الحيوانات ومافيها من النافع الأدهان والأدوية والأصباغ وضروب أخر من المصالح التي يتعلمها الناس وماخفى عليهم منها أكثر. فتأمَّل الحكمة في إخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافعها وكسوتها لحمًا لذيذًا شهيًا يتفكه به ابن آدم

(١) انظر كتابه (مفتاح دار السعادة).

نمو بذرة الرمان

١ ـ الزهرة تسقط أوراقها

٢ ـ يبقى المبيض

٣ ـ المبيض
ينتفخ إلى أن تصبح الثمرة

قشرة الموز طرية وتنغلق على اللب وحالما
تتعرض للهواء تراها قد تأكسدت.
فسبحان من حفظها في غلاف مكين.

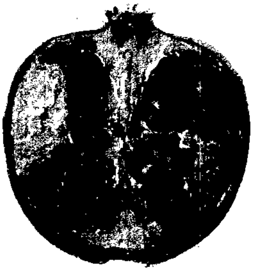

٤ ـ ثمرة الرمان وهي مفتوحة

قشــرة الثمــرة

ثم تأمَّل هذه الحكمة البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غلافًا يحفظها وعشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز ونحوه وأما مالا يفسد إذا كان بارزًا فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فإذا اشتد وقوي تفتق عن ذلك الغشاء وضَحَّى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره.

خــلق الرمــان

ثم تأمَّل خلقة الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال القلال شحمًا متراكمًا في نواحيها، وترى ذلك الحب فيها مرصوفًا رصفًا ومنضودًا نضدًا لاتمكن الأيدي أن تنضده، وترى الحب مقسومًا أقسامًا وفرقًا وكل قسم وفرقة منه ملفوفٌ بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج وألطفه وأدقه على غير منوال إلا منوال (كن فيكون)، ثم ترى الوعاء المحكم الطلب قد اشتم على ذلك كله وضمه أحسن ضم. فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع فيها فإن الحب لايمد بعضه بعضًا إذا ارمد بعضه بعضًا إذ لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق أختها بل يجري الغذاء في ذلك العرق مجرى واحد ثم ينقسم منه في مجاري الحبوب كلها فينبعث منه في كل مجرى غذاء تلك الحبـة فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك اللفائف لضمه ويمسكه فلايضطرب ولايتبدد ثم غشي فوق ذلك بالغشاء الصلب صونًا له وحفظًا وممسكًا له بإذن الله وقدرته،فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولاغيرنا استقصاء ذلك ولو طالت الأيام واتسع الفكر ولكن هذا منبه على ماوراءه واللبيب يكتفي ببعض ذلك. وأما من غلبت عليه الشقاوة فقد قال الله فيه:

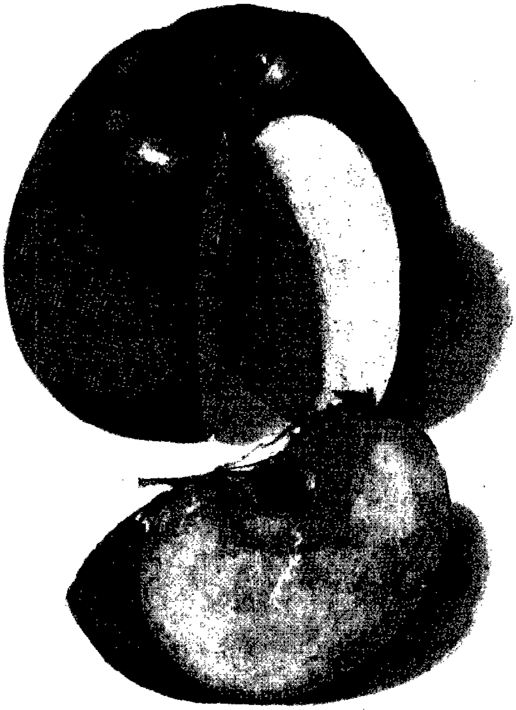

بذور التفاح

بذور الطماطم

البذور هي أصل النبات.

﴿وكأيِّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾.
أي غافلون عن موضع الدلالة فيها.

خلق البذور

ثم تأمَّل هذا الريع والنماء الذي وضعه الله في الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعمائة حبة ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها لايكون في الغلة متسع لما يرد في الأرض من الحب ومايكفي الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعها فصار الزرع بريع هذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة وكذلك ثمار الأشجار والنخيل وكذلك مايخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه في مآربهم خلفًا فلا تبطل المادة عليهم ولاتنقص ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله مايبذرونه فيهم ومايقيتهم إلى استواء الزرع، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه مايزرعون.

خلق الحبوب

ثم تأمَّل الحكمة في الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجًا في قشور على رؤوسها أمثال الأسنة فلايتمكن جند الطير من إفسادها والعبث فيها فإنه لو صادف الحب بارزًا لاصوان عليه ولاوقاية تَحُولُ دونه لتمكن منه كل التمكن، فأفسد وعاب وعاث وأكبَّ عليه أكلًا مااستطاع وعجز أرباب الزرع عن رده، فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه، فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للإنسان فإنه أولى به لأنه هو الذي كدح فيه وشقى به وكان الذي يحتاج إليه أضعاف حاجة الطير.

تقدير حمل الأشجار

ثم تأمَّل الحكمة الباهرة في هذه الأشجار كيف تراها في كل عام لها حمل ووضع فهي دائمًا في حمل وولادة فإذا أذن لها ربها في الحمل احتبست الحرارة الطبيعية في

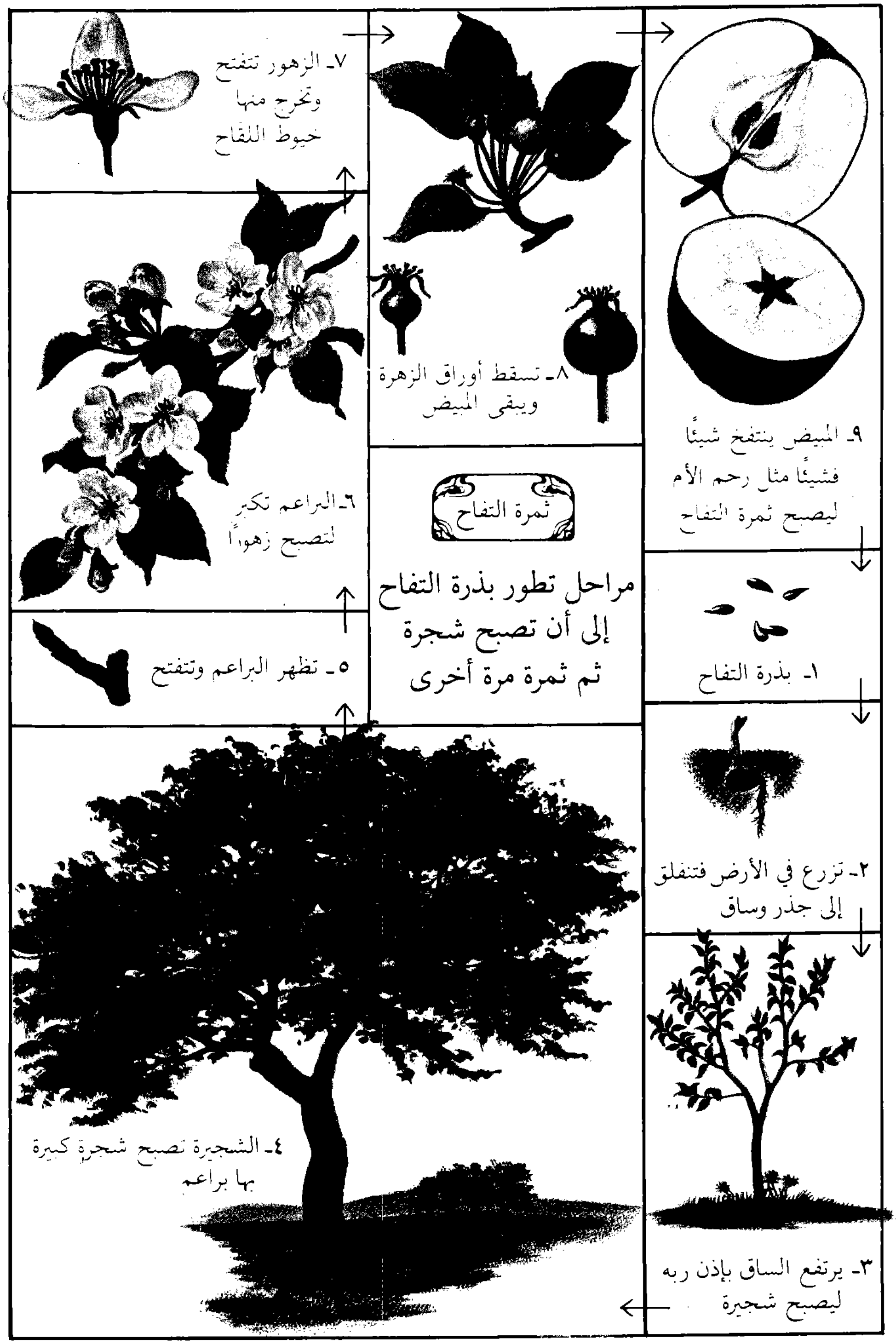
ثمرة التفاح
مراحل تطور بذرة التفاح
إلى أن تصبح شجرة
ثم ثمرة مرة أخرى
١- بذرة التفاح
٢- تزرع في الأرض فتنفلق
إلى جذر وساق
٣- يرتفع الساق بإذن ربه
ليصبح شجيرة
٤- الشجيرة تصبح شجرة كبيرة
بها براعم
٥- تظهر البراعم وتتفتح
٦- البراعم تكبر
لتصبح زهوراً
٧- الزهور تتفتح
وتخرج منها
خيوط اللقاح
٨- تسقط أوراق الزهرة
ويبقى المبيض
٩- المبيض ينتفخ شيئًا
فشيئًا مثل رحم الأم
ليصبح ثمرة التفاح

داخلها واختبأت فهيا ليكون فيها حملها في الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطف فتعمل المادة في أجوافها عملها وتهيئها للعلوق، حتى إذا آن وقت الحمل دبَّ فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء في أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة، حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق ماتتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم، فإذا ظهر أولادها وبان للناظر حملها، علم حينئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة في بطون أمهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد، فإذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت إليك أفنانها كأنها تناولك ثمرة دُرِّها، فإذا قابلتها رأيت الأفنان كأنها تلقاك بأولادها وتحييك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأنهم منك لا يناولك إياهم بيده ولاسيما قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا. وكذلك ترى الرياحين كأنها تحييك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا إكرامًا لك وعناية بإكرامك وتخصيصًا لك وتفضيلاً على غيرك من الحيوانات.

أفيجمل بك الانشغال بهذه النعم عن المنعم بها؟ فكيف إذا استعنت بها على معاصيه وصرفتها في مساخطه فكيف إذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال تعالى:

﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها. ماهو ولأي شيء خلق ولماذا هي وأي أمر طلب منه على هذه النعم كما قال تعالى:

﴿واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لأن ذلك لايزيده إلا محبَّة لله وحمدًا وشكرًا وطاعة وشهود تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل:

قد هيأك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

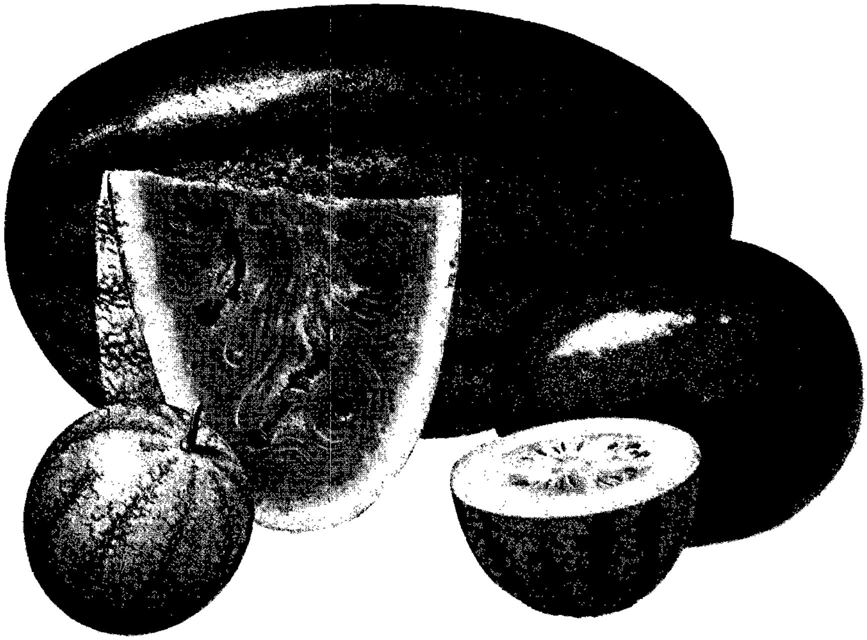

أنواع من البطيخ

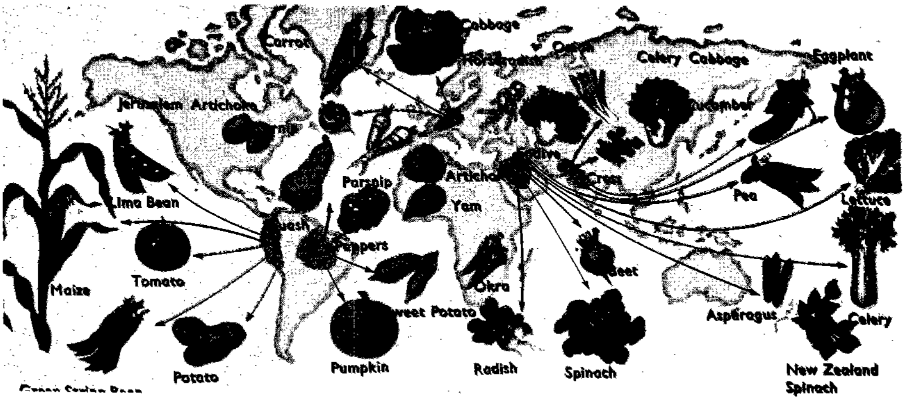

أصنـاف كثيرة من الخضروات تنتشر في أرجاء الأرض كلها فسبحان من وزع الأقوات والثمار كل بحسبه وطبيعته.

البطيخ

ثم تأمَّل الحكمة في شجرة اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة أن يكون حمله ثمارًا كبارًا جعل نباته منبسطًا على الأرض إذ لو انتصب قائمًا كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل إدراكها وانتهائها إلى غاياتها فاقتضت حكمة مبدعها وخالقها أن بسطه ومده على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطًا على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها حيوان قد اكتنفها أجراؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوبيا والباذنجان والباقلا وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته أنبته الله منتصبًا قائمًا على ساقه إذ لايلقى من حمل ثماره مؤونة ولايضعف عنه.

اختلاف الثمار مع اختلاف الأوقات

ثم تأمَّل كيف اقتضت الحكمة الإلهية موافات أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضي لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمآن فتتلقاها الطبيعة بانشراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف إنما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالاً بوروده مع ماكان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى مافي ربيعها في الخريف أو مافي خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولااستطابته واستلذته ذلك الالتذاذ. ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته مملولاً محلول الطعم ولايظن أن هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لايخل بها الحكيم الخبير.

النخلة

ثم تأمَّل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب مايبهرك فإنه لما قدَّر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان

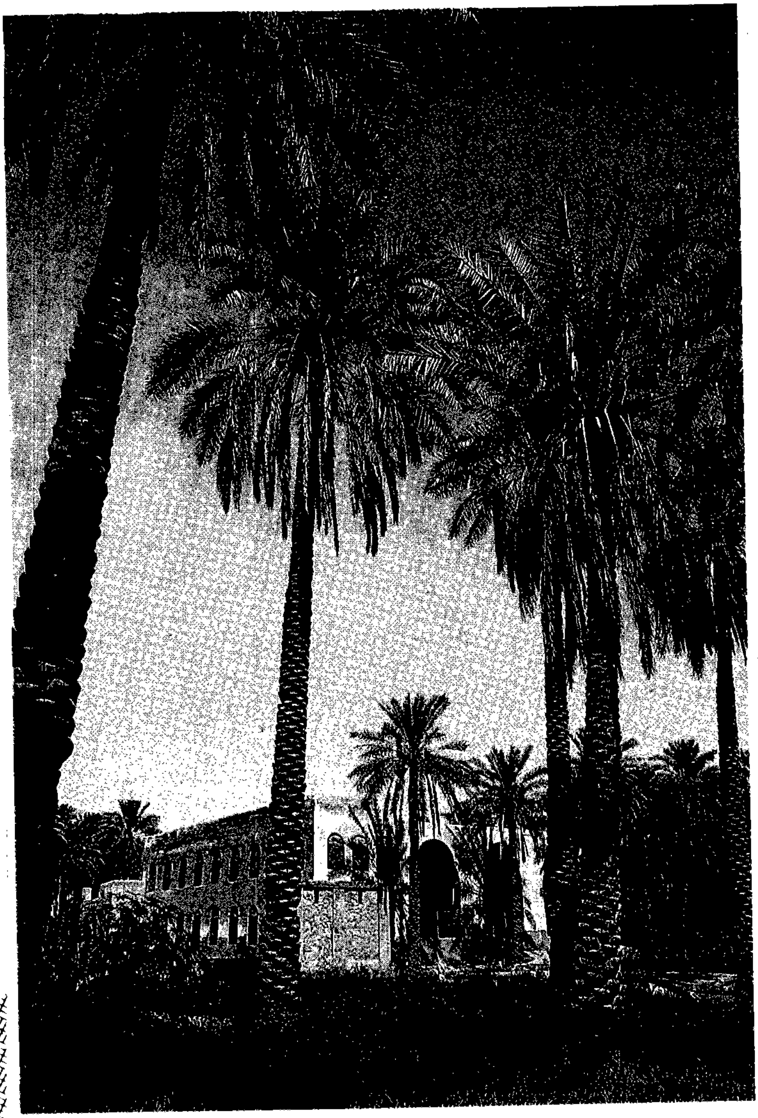

وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ

خصوصًا بالمؤمن كما مثله النبي ﷺ وذلك من وجوه كثيرة:

الأول: ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

الثالث: دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفًا ولاشتاءًا كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينته حتى يوافي ربه تعالى.

الرابع: سهولة تناول ثمرتها وتيسره،أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم.

الخامس: أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسة يكون قوتًا وأدمًا وفاكهة ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار.

الوجه السادس: من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولاصبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة فكذلك المؤمن صبور على البلاء لاتزعزعه الرياح.

السابع: أن النخلة كلها منفعة لايسقط منها شيء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما يجعل للأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ماهو معلوم عند الناس وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل إزاءه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك والمؤمنين المتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينًا. قال تعالى:

يصل حجم الأشجار التي يحصل منها على الأخشاب إلى حد تمر من خلالها سيارة كما هو مبين في الصورة «شجرة من نوع السكوية»

﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

الثامن: أنها كلما أطال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله.

التاسع: أن قلبها من أطيب القلوب.

العاشر: أنها لايتعطل نفعها بالكلية أبدًا بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وهكذا المؤمن لايخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأمونًا. وفي الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ قال: «**خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لايرجى خيره ولايؤمن شره**». فهذا فصل معترض ذكرناه استطرادًا للحكمة في خلق النخلة وهيئتها فلترجع إليه.

فتأمَّل خلقة الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسد وأخرى معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب فلا تقتصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبه النسج ولاتراه مصمتًا كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه داخل بعضًا طولاً وعرضًا كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه فإنه لو كان مصمتًا كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت وماأشبهها.

الفراولة

العنب

التمر والعنب أيهما أفضل؟

وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل، وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلدًا فأطال فيها الحجج والتفضيل من الجانبين، وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعًا وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق، والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعًا وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لاتقبل النخيل.

وحضرت مرة في مجلس بمكة فيه من أكابر البلد فجرت هذه المسألة وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل وفوائده وقال في أثناء كلامه: ويكفي في تفضيله أنا نشتري بنواه العنب، فكيف يفضل عليه ثمر يكون نواه ثمنًا له؟ وقال آخر من الجماعة قد فصل النبي ﷺ النزاع في هذه المسئلة وشفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب كرمًا وقال: الكرم قلب المؤمن. فأي دليل أبين من هذا؟ وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك. فقلت للأول ماذكرته من كون نوى التمر ثمنًا للعنب فليس بدليل فإن هذا له أسباب. أحدها حاجتكم إلى النوى للعلف فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحة وحمولته. الثاني أن نوى العنب لافائدة فيه ولايجتمع. الثالث أن الأعناب عندكم قليلة جدًا والتمر أكثر شيء عندكم فيكثر نواه فيشتري به الشي اليسير من العنب وأما في بلاد فيها سلطان العنب فلا يشتري بالنوى منه شيء ولاقيمة لنوى التمر فيها.

وقلت لمن احتج بالحديث هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره فإنه يؤكل رطبًا ويابسًا وحلواً وحامضًا وتجني منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك فسموه كرمًا لكثرة خيره فأخبرهم النبي ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية لكثرة ماأودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والإحسان والنصح وسائر أنواع البر والخير التي وضعها الله في قلب المؤمن فهو أحق بأن يسمى كرمًا من شجر العنب ولم يرد النبي ﷺ إبطال مافي شجر العنب من المنافع والفوائد وأن تسميته كرمًا كذب وأنها

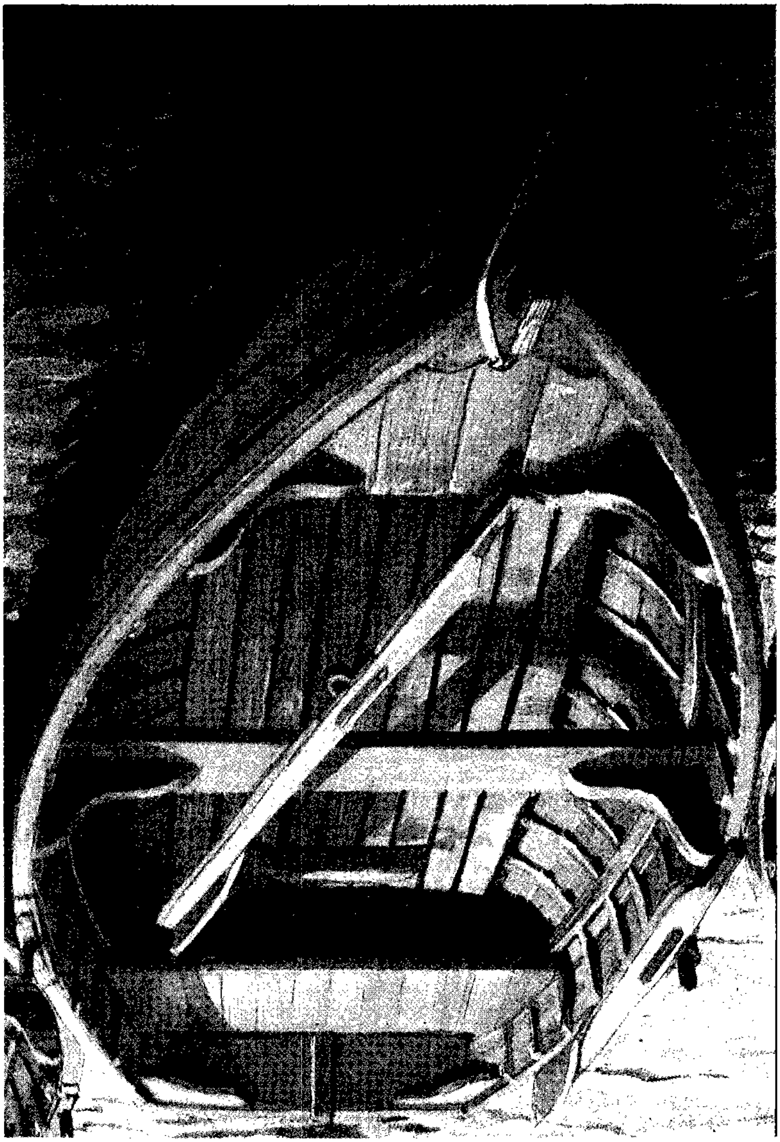

الخشب يطفو على الماء أليست هذه من النعم الكبيرة.

لفظة لامعنى تحتها، كتسمية الجاهل عالمًا والفاجر برًا والبخيل سخيًا ألا ترى أنه لم ينف فوائد شجر العنب وإنما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائد وأعظم منافع منها.

هذا الكلام أو قريب منه جرى في ذلك المجلس وأنت إذا تدبرت قول النبي ﷺ (الكرم قلب المؤمن) وجدته مطابقًا لقوله في النخلة مثلها مثل المسلم فشبه النخلة بالمسلم في حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم في الحديث الآخر ونهاهم أن يخصوا شجر العنبَ باسم الكرم درن قلب المؤمن. وقد قال بعض الناس في هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرمًا لأنه يقتني منه أم الخبائث فيكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد الذرائع في الألفاظ وهذا لابأس به لولا أن قوله فإن الكرم قلب المؤمن كالتعليل لهذا النهي والإشارة إلى أنه أولى بهذ التسمية من شجر العنب ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من كلامه فالذي قصده هو الحق.

وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والأعناب فساقها فيما عدد عليهم من نعمه والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله فإن أم الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل كما قال تعالى:

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا﴾.

وقال أنس: نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شيء وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر. فلو كان نهيه ﷺ عن تسمية شجر العنب كرمًا لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤه ن لأن المسكر يتخذ منها والله أعلم.

الخشب

ومن بديع الحكمة في الخشب أن جُعِلَ يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤونة في نقلها وتعذَّر على الناس كثير من مصالحهم.

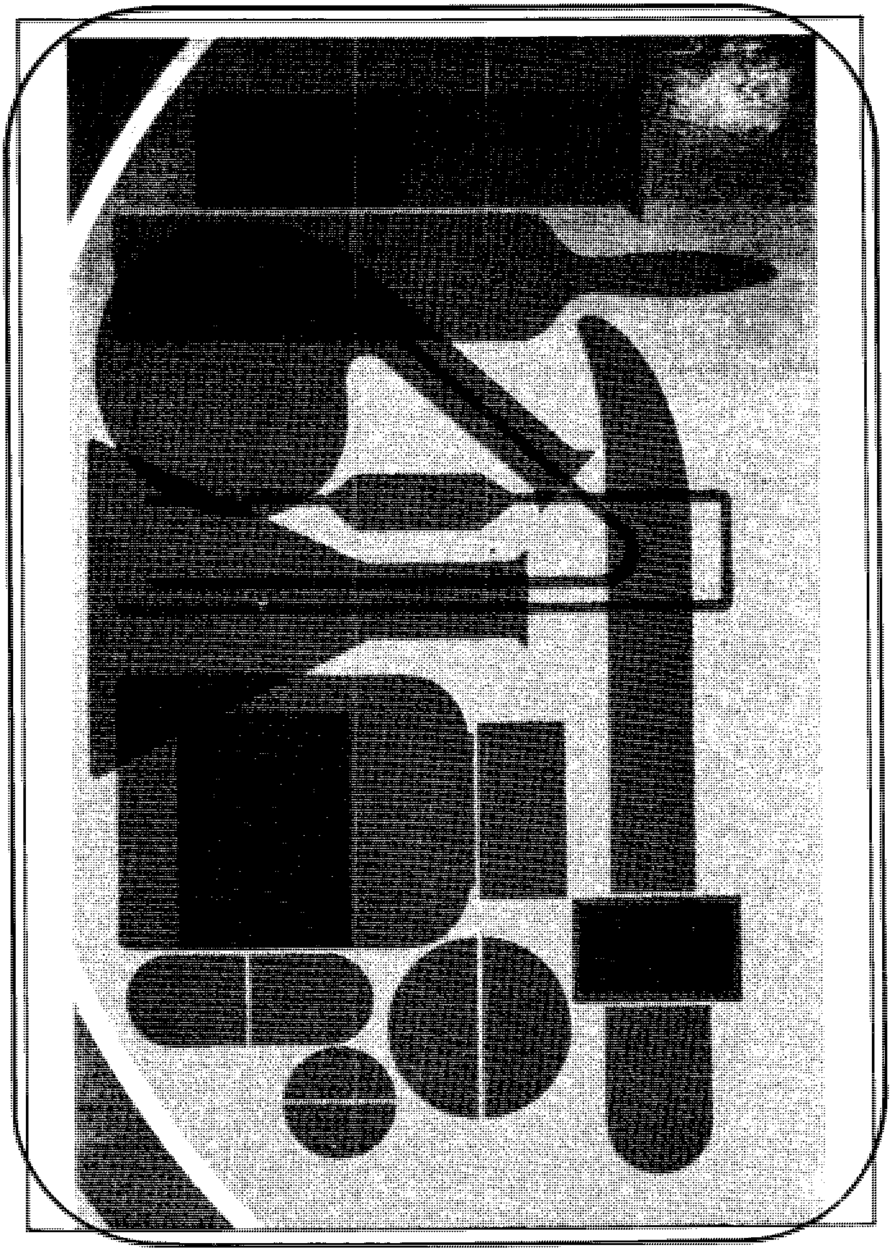

العقاقيـر

ثم تأمّل أحوال هذه العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض وماخص به كل واحدٍ منها وجعل عليه من العمل والنفع، فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضـول الغيلظة القـاتلة لو احتبست، وهـذا يستخـرج المرة السوداء، وهذا يستخرج المرة الصفراء، وهذا يحل الأورام، وهذا يسكن الهيجان والقلق، وهذا يجلب النوم ويعيده إذا أعوزه الإنسان، وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل، وهذا يفرح القلب إذا تراكمت عليه الغموم، وهذا يجلو البلغم ويكشطه، وهذا يحصد البصر، وهذا يطيب النكهة، وهذا يسكن هيجان الباءة، وهذا يهيجها، وهذا يبرد الحرارة ويطفئها، وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة، وهذا يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية، وهذا يقاوم بكيفيته كيفية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولها، وهذا يسكن العطش، وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها، وهذا يعطي اللون إشراقًا ونضارة، وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن، وهذا ينقص منها، وهذا يدبغ المعدة، وهذا يجلوها ويغسلها، إلى أضعاف ذلك مما لايحصيه العباد.

فسـل المعـطل من جعـل هذه المنـافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق؟ ومن أعطى كل منها خاصيته؟ ومن هدى العباد بل الحيوان إلى تناول ماينفع منه وترك مايضر؟ ومن فطن لها الناس والحيوان والبهيم؟ وبأي عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ماخلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا إنعام الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ وهب أن الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه، فمن الذي فطنّ لها البهائم في أشياء كثيرة منها مالا يهتدي إليها الإنسان؟ حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ. فمن الذي جعله يقصد ذلك النبات دون غيره؟ وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الإخراج وبعض الطير يتناول إذا اعتل شيئًا من النبات فتعود صحته وقد ذكر الأطباء في مبادىء الطب في كتبهم من هذا عجائب! فسل المعطل من ألهمها ذلك؟ ومن

توزيع أشهر أنـواع الزهور في العالم وهناك مئات الزهور الغريبة الأشكال والأنواع والأحجام فسبحان من خلق كل شيء بقدر.

أرشـدها إليه ومن دلها عليه؟ أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه الله الذي لا إله إلا هو الخالق الباريء المصور الذي لاتنبغي العبـادة إلا له وإنـه لو كان معـه في سماواته وأرضه إله سواه لفسدت السمـوات والأرض واختـل نظام الملك؟ فسبحـانـه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

نبـات الصحـارى

ولعلك أن تقول ماحكمة هذا النبات المبثوث في الصحارى والقفار والجبال التي لاأنيس بها ولاساكن وتظن أنه فضله لاحاجة إليه ولافائدة في خلقه وهذا مقـدار عقلك ونهاية علمـك فكم لباريه وخالقه فيه من حكمة وآية من طعم لوحش وطير ودواب مساكنها حيث لاتراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه.

المراجع

١ - مفتاح دار السعادة لابن القيم ج١
٢ - الفكر التربوي لابن القيم .
٣ - الطب محراب للإيمان ج١ ، ج٢ .
٤ - تطور خلق الإنسان ج٣ . (The Developing Human) .
٥ - غريزة أم تقدير إلهي .
٦ - بهجة المعرفة «الكون» «الطبيعة» «العلم» .
٧ - وفي أنفسكم أفلا تبصرون .
٨ - الوجيز في علم الأجنة .
٩ - خلق الإنسان بين الطب والقرآن .
١٠ - خمسون سؤالاً عن الفضاء .
* - مجموعة سلاسل علمية مبسطة للناشئة ومنها :
١١ - كتب الفراشة .
١٢ - انظر وتأمَّل .
١٣ - مكتبتي الأولى .
١٤ - سلسلة العلوم للناشئين .
١٥ - كتب ليدي بيرد مختلفة المستويات .
١٦ - الموسوعة العلمية الحديثة .
١٧ - النجوم والكواكب .
١٨ - موسوعة الشباب العلمية .